دعاء الخليل
في الذكر الحكيم
مقاصده وأسراره

د. صبحي إبراهيم عفيفي المليجي

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية بالمنوفية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، في العالمين، إنك حميد مجيد. أما بعد،،،

فثم حبٌّ عظيمٌ يتملكني تجاه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، حبٌّ يضارع في عظمته حبي لسيدنا محمد ﷺ، بسبب ما تتسم به شخصيته من حُنُو هائل، وسماحة بالغة، وصبر شديد، وعزم أكيد، وحرص مستمر على ذريته، وانشغال دائم بها، مهما تباعدت بهم الأماكن، ومهما اختلفت بهم الأزمان.

وقد نشأ ذلك الحب من بيان القرآن الكريم عن شخصيته، وذكره لمواقفَ كثيرةٍ من سيرته، جعلته من أكثر رسل الله تعالى ذكرا في كتاب الله عز وجل[١]، كما نشأ من الإشارات والأوامر القرآنية للنبي ﷺ باتباع ملته، والسير على منهجه، واتخاذه أسوة حسنة، وإعلان ذلك بين الناس[٢].

وكان من اللافت للنظر، والمثير إلى الوقوف على أسبابه أن يردد المسلمون في كل صلاة يصلونها- ليلا أو نهارا- الصلاةَ والسلامَ على جدهم إبراهيم، كما يرددون الصلاة والسلام على نبيهم محمد ﷺ.

---

(١) ورد الحديث عن خليل الرحمن إبراهيم في الذكر الحكيم فيما يزيد على ثمانين موضعا.

(٢) وردت هذه الإشارات والأوامر في تسعة مواضع من الذكر الحكيم- حسبما يتراءى لي- البقرة/١٣٠- البقرة/ ١٣٥- آل عمران/ ٩٥- النساء/ ١٢٥- الأنعام/ ١٦١- النحل/ ١٢٣- الحج/ ٧٨- الممتحنة/ ٤- الممتحنة/ ٦.

مما جعل الرغبة تتملكني، وتلح علي إلحاحا في تلمس شيء من سمات تلك الشخصية العظيمة، التي حظي صاحبها باصطفاء الله تعالى له خليلا! فيممت وجهي شطر كتاب الله سبحانه وتعالى، لألتمس في بيانه العلي المعجز ملامح شخصية إبراهيم الخليل، وكانت مشاهد أدعيته وضراعاته هي الجزئية التي استحوذت على التفكير العميق، والتأمل الطويل؛ للوصول من خلالها إلى تلك السمات، ليقيني أن ما يبتهل به الإنسان، ويلح على الله تعالى فيه هو الترجمة العملية للاهتمامات والمقاصد التي تسيطر عليه، وتشغل باله، وتملأ عقله، كما أنه كفيل بإبراز سمات الداعي الشخصية، وبيان مناقبه الإنسانية.

ومن ثم عقدت العزم على تناول المواضع التي حكى فيها الذكر الحكيم أدعيةَ الخليل، وابتهالاته، قاصدا من وراء ذلك إلى تحقيق ما يلي:

أولا- استجلاء بعض أسرار النظم القرآني، وبيان أوجه الإعجاز البلاغي لتراكيبه وهو يحكي ضراعات الخليل وابتهالاته، انطلاقًا من اقتناعي بأننا إذا أردنا أن نعرف سماته وفضائله فإن الطريق إلى ذلك هو حسن استحضار البيان القرآني عنه بصفة عامة، وعن أدعيته بصفة خاصة، وحسن فهمه وفقهه، لأنه البيان الذي لا يساويه بيان آخر في هذا الموضوع أو في غيره.

ثانيا- إثراء مكتبة البلاغة العربية بعمل يخص الآيات القرآنية التي تحكي أدعية الخليل بالدرس البلاغي، والتحليل الأسلوبي المُوَضِّح أثر هذا الموضوع، وأثر السياق الوارد فيه على منهاج البيان القرآني عنه، والقاصد إلى إثراء ما استخلصه أئمة البلاغة من أصول البيان بحسن النظر في عَلِيِّ البيان، الذي "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"(فصلت ٤٢).

ثالثا- أن تجتهد هذه الدراسة في استظهار أسباب الهداية، التي يتسم بها كلام الله تعالى، من خلال التعمق والغوص في مقاصد أدعية الخليل وأسرارها، عساها

أن توفق إلى شيء يساعد هذه الأمة في النهوض من كبوتها، ويأخذ بيدها من أجل العودة إلى الميراث الذي ورثته عن جدها.

واختار البحث للوقوف على أسرار التعبير القرآني في هذا الموضوع المنهج الاستقرائي القائم على استقراء الجزئيات وتحليلها وتأويلها لاستنباط كليات ضابطة، والذي يسائل- أيضا- خصوصيات التراكيب، ويتمثل نظرية النظم، التي هي أشكل بمثل هذه الدراسات.

ومن ثم رأت الدراسة أن تتناول كل واحد من أدعية الخليل الستة[١] تناولا مستقلا، تجنبا لتقسيمه وتفتيته، فأوردتْ الآياتِ القرآنيةَ التي تحكي كل دعاء، و بينت السياق الذي ورد فيه، ثم شرعت في تحليل كلمات الدعاء وجمله وأساليبه البلاغية، تحليلا كاشفا عن أثر التعبير بها في تحقيق الغرض المقصود منه، والآثارِ التي تركتها في نفوس المخاطبين، الذين نزل عليهم القرآن الكريم إلى يوم الدين، ثم بدا لها أن تقوم في نهاية التحليل باستخلاص قصد الخليل، وإجمال الأساليب البلاغية التي استعملها، وإبراز مدى تعانقها في تحقيق الغرض الذي دعا اللهَ تعالى من أجله.

ولم يفت الدراسة أن تتوقف بالإشارة الجامعة عند ما أورده النظم، مما يعد أثرا من الآثار المترتبة على دعاء الخليل، لتكشف بذلك عن أن استدعاء النظم الحكيم لهذه المشاهد الضارعة قد وقع موقعه، وحقق الغاية التي جيء به من أجلها.

وقد أوجب ذلك المنهج أن يأتي هذا العمل في مقدمة وخمسة مطالب وخاتمة:

---

(١) المواضع القرآنية التي تحكي دعاء الخليل ستة: اثنان في البقرة، وواحد في كل من: إبراهيم، والشعراء، والصافات، والممتحنة.

– قامت المقدمة ببيان الأسباب التي دفعت إلى اختيار هذا الموضوع، مع إيضاح المنهج المتبع في دراسته.

– والمطلب الأول جاء بعنوان: دعاء الخليل في سورة "البقرة".

– والمطلب الثاني كان عنوانه: دعاء الخليل في سورة "إبراهيم".

– والمطلب الثالث كان عنوانه: دعاء الخليل في سورة "الشعراء".

– والمطلب الرابع كان عنوانه: دعاء الخليل في سورة "الصافات".

– والمطلب الخامس كان بعنوان: دعاء الخليل في سورة "الممتحنة".

– ثم جاءت الخاتمة لتكشف عن أهم النتائج والتوصيات التي انتهت الدراسة إليها.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يجزي كل من أعان عليه بكلمة أو رأي أو دعاء خير الجزاء، وأن يحقق الغاية التي قام لأجلها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

د. صبحي إبراهيم عفيفي المليجي.

المطلب الأول

دعاء الخليل في سورة "البقرة"

الموضع الأول:

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَي عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"(البقرة ١٢٦- ١٢٩).

هذ أول دعاء يحكيه القرآن الكريم من أدعية خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وفيه مشهدان:

المشهد الأول:

مشهد إبراهيم الخليل، وهو يتضرع إلى الله تعالى بأن يجعل مكة بلدا آمنا، وأن يرزق أهله من الثمرات "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ".

وهو دعاء يأتي في سياق حديث سورة البقرة عن مكانة الخليل عند ربه، ومنزلته التي أنزلها له بين الناس؛ تذكيرا لذريته بتاريخه، وحثا لهم على الاقتداء به، وعدم التنكر لملته، وملة سيدنا محمد ﷺ الذي يسير على منهجه "وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" (البقرة ١٢٤).

ويأتي معطوفا علي قوله تعالي "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ"(البقرة ١٢٥)، الذي يؤكد تلك المكانة من خلال بيان ما يلي:

أولا- اختصاص الله تعالى البيتَ الحرامَ- الذي بناه إبراهيم عليه السلام- بأن يكون "مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا"، ومعني "مَثَابَةً": أنهم يأتون إليه من كل مكان، ولا يقضون منه وطرا، يأتونه ثم يرجعون إلي أهليهم، ثم يعودون إليه[١]، ومعني "أَمْنًا": أنه يحرم إيذاء من دخله وأوي إليه أو تخويفه[٢]، وقدم الأول وأخر الثاني، لأن الثاني لا يُعرف ولا يُتحقق من حصوله إلا بحصول الأول.

ثانيا- أمره عزوجل الناسَ باتخاذ مقام إبراهيم عليه السلام (سواء أكان المراد به: المكان الذي كان يقف عليه وهو يبني الكعبة، أم أي مكان وقف فيه وصلى به) مكانا للصلاة.

ثالثا- عهده سبحانه وتعالى إلى إبراهيم وولده إسماعيل- دون غيرهما- بأن يقوما بتهيئة هذا البيت الآمن وتوطئته للطائفين والعاكفين والركع السجود، وما يلقي به ذلك العهد في نفوس المتلقين بصفة عامة، ومشركي مكة بصفة خاصة من استحضار الصورة التي كان عليها هذا البيت قبل أن يقوم الرسولان الكريمان بامتثال أمر الله تعالى لهما.

*****

بعد ذلك يحكي القرآن الكريم ما ابتهل به أبو الأنبياء إلى ربه، ويكشف عما تضرع به إلى مولاه، في تلك الأثناء التي كانت فيها مكة مكانا غير معروف،

---

(١) الدر المنثور ٦١٦/١.

(٢) السابق (بتصرف).

وبيئة غير آمنة، إذ بين الذكر الحكيم أن ابتهاله جاء قاصدا إلى: أن تنسحب مزية الأمن والاجتماع التي اختص الله تعالى بها بيته الحرام على البلد الذي يقع فيه، وأن يكون رزق من عاش فيه مؤمنا بالله تعالى وافرا متنوعا.

ولا يخفى ما في ذلك من ذكاء وفطنة، إذ لا كمال للنعمة ولا تمام للمنة إلا بحصول هذين الأمرين للبقعة التي يقع فيها بيت الله الحرام، وبذلك يتضح لمشركي مكة، ولكل من يفعل مثلهم من ذرية إبراهيم ما هم فيه من جحود ونكران وعقوق لأعظم آبائهم، الذي كان حريصا عليهم وعلى ذريتهم، كما كان حريصا على المكان المؤمل إقامتهم فيه.

والمتأمل في نظم هذا الابتهال يجد أن الخليل عليه السلام بدأه بقوله "رَبّ" مؤثرا حذف أداة النداء، لما يُشْعِر به ذلك الحذف من قرب المنادَي سبحانه وتعالي، وشدة احتياج الداعي إليه، وعظم إقباله عليه، وغير ذلك مما يغني عن ذكر الأداة، التي قد يحول ذكرها دون هذه الإشارات في مقام الدعاء والابتهال، كما أنه من سنن القرآن في الدعاء بـ "رَبِّ".

واختيار اسم "الرَّب" ليُنادَي، له دلالته علي ثقته في إجابة دعائه، لما يشع منه من معاني الرعاية والحماية وقضاء المصالح[١]، يضاف إلي ذلك: أن هذا الاسم- بما يدل عليه من (التربية)- هو المناسب للدعاء بجعل هذا البلد آمنا؛ لما فيه من علم بأن الأمن معين علي الاجتهاد في العبادة وإقامة الشعائر في أي مكان، ولا سيما عند بيت الله الحرام، وفي إضافته إلي ضمير المتكلم إشارة إلي إعلانه أنه ليس له مَن يرعاه ويحقق دعاءه غيره سبحانه، وفيه من الاستعطاف ما فيه، وسيأتي مزيد من بيانه في المواضع التالية.

(١) المفردات في غريب القرآن- مادة رب.

وقوله "اجْعَلْ" أسلوب أمر غرضه التوسل والتضرع[1]، وإسناده إلي ضمير الرب سبحانه وتعالي فيه إقرار بقدرته، وإثارة لتحقيق مطلبه، كما أنه برهان ثقة في ربه ومولاه.

واستعمل إبراهيم عليه السلام اسم الإشارة "هذا" بدلا من تسمية الموضع القائم به أثناء الدعاء؛ "لما في ذلك من استحضار ذات المشار إليه، إذ الاستحضار بالذات مغن عن الإشارة الحسية باليد، لأن تمييزه عند المخاطب مغن عن الإشارة إليه، فإطلاق اسم الإشارة حينئذ واضح.

وأصل أسماء الإشارة أن يُستغني بها عن زيادة تبيين المشار إليه تبيينا لفظيا، لأن الإشارة بيان ... وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه اكتفاء عنه بما هو واقع عند الدعاء، فإن إبراهيم دعا دعوته وهو في الموضع الذي بني فيه الكعبة، لأن الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء إنما هو بيان استجابة دعائه وفضيلة محل الدعوة وجعل مكة بلدا آمنا ورزق أهله من الثمرات، وتلك عادة القرآن في الإعراض عما لا يتعلق به المقصود"[2]، ويبدو لي في ذلك – بجانب ما سبق ذكره – رجاؤه الشديد بزيادة اختصاص البلد الذي أشار إليه بمزية الأمن والأمان، لما فيه من حرمٍ جعله الله تعالي مثابة للناس من كل مكان.

وربما يكون السر في عدم ذكر إبراهيم– عليه السلام– اسم هذه البقعة من الأرض أنها لمّا تكن معروفة بعد، ولمّا يكن لها اسم تذكر به، كما أن تسميتها في دعائه قد يضيق واسعا، وسيأتي مزيد من إيضاحه في دعاء سورة إبراهيم.

---

(1) ينظر الإيضاح بشرح الصعيدي ٢/ ٢٧١.

(2) التحرير والتنوير ١/ ٦٩٤ وما بعدها.

وفي تنكيره "بَلَدًا" وتنوينه ضرب من التعظيم والتفخيم[١] يوحي به اللفظ والجرس معا، فكأنه- عليه السلام- يبتهل بأن يكون لهذا البلد شأن عظيم، ومكانة مهيبة، وفي جرس "آمِنًا" المبدوء بحرف المد والمختوم به ما يشعر برغبته في أن يبلغ الأمن في هذه البقعة منتهاه، وألا يماثلها فيه بلد آخر.

ولا يخفي ما فيه من مجاز عقلي جاء من إسناد ما يجب أن يكون للحالّ إلي المحل، إذ المعني الحقيقي: آمنا أهله وزُوّارُه، غير أن ما جاء عليه التعبير القرآني المحكي علي لسان الخليل- عليه السلام- يبرز لنا رغبته في أن يشعر بنعمة الأمن كل شيء في هذا المكان، سواء في ذلك البشر وغيرهم.

واقتصر دعاؤه لهذا البلد علي أن يكون آمنا دون أن يكون مثابة، لأن الأول سبب في الثاني، ولأن وجود البيت الحرام فيه سيجعل منه مثابة ولا شك، ومن ثم اقتصر ابتهاله علي طلب الأمن في أعلي مستوياته، يقول صاحب التحرير والتنوير: "ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوءة، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي العدل والعزة والرخاء، إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال علي ما ينفع ... وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه علي سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام"[٢].

*****

ثم سأل عليه السلام ربه سبحانه وتعالي أن يرزق أهل هذا المكان من الثمرات دون الأطعمة والأغذية "وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ"؛ لأن طلب رزقهم من الثمرات متضمنٌ طلب رزقهم بالأطعمة والأغذية من باب أولي، إذ الأولي تأتي بعد

---

(١) يراجع الإيضاح بشرح الشيخ الصعيدي ١/ ٩٤.

(٢) التحرير والتنوير ١/٦٩٦.

الثانية، كما أنها عنوان رفاهية وغني وعدم احتياج، وكان دعاؤه بذلك ليحدث الاستقرار به وعدم الرحيل عنه، إذ الأمن مع الغذاء من أسباب الاستقرار والبقاء.

وآثر إبراهيم- عليه السلام- التعبير بـ "أَهْلَهُ" دون غيره مما يقوم مقامه، لما يُشعر به من التأهيل والأهلية والخصوصية، وفي إضافته إلى الضمير العائد على البلد ما يدل على أنهم فضلوا تأهيل هذا المكان، واستحسنوا الإقامة فيه، واختصوا برعايته وتحسينه، ومن ثم استحقوا ما يطلبه لهم من التوسعة ورغد العيش.

وقوله "مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ" بدل بعض من كل في قوله "أهلَه" يفيد تخصيصه، لأن "أهلَه" عام، إذ هو اسم جمع مضاف، وبدل البعض مخصِّص.

وفيه على ما يبدو لي- بجانب التأدب مع الله- ضرب من إثارة المتلقين الذين تبلغهم دعوته إلى الإيمان وعدم الكفر، ليتحقق لهم بذلك نوعان من النعيم والرغد، أحدهما: دنيوي، والآخر: في الآخرة عند لقاء الله سبحانه وتعالى، وبه تتجلى الأبوة الحانية، والإمامة الرحيمة، والإنسانية النبيلة التي كان يتسم بها خليل الله إبراهيم عليه السلام، والتي يماثله فيها تمام المماثلة سيد الخلق محمد ﷺ.

يقول ابن عاشور "وخصَّ إبراهيمُ المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصًا علي شيوع الإيمان لساكنيه؛ لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم خَصّت المؤمنين تجنبوا ما يحيد بهم عن الإيمان، فجعل تيسير الرزق لهم علي شرط إيمانهم باعثا لهم علي الإيمان، أو أراد التأدب مع الله تعالي فسأله سؤالا أقرب إلي الإجابة"[1].

(1) التحرير والتنوير ١/٦٩٧.

وخلاصة القول:

أن قصد الخليل إلى انسحاب مزية الأمن على البلد الذي يقع فيه بيت الله الحرام دفعه إلى أن يعبر بأسلوب الأمر المراد به التضرع والرجاء، وأن يعطف عليه طلب رزق أهله من الثمرات، وأن يُتبعه بقوله "مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ.."، مع التمهيد له بنداء المولى سبحانه وتعالى بعنوان الربوبية المفيد للتوسل والاستعطاف، ليلقى طلبه القبول والإجابة، وهو ما يشير إليه قوله سبحانه وتعالي بعد الدعاء "وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَي عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"، والذي من أسراره: حثُّ أهل هذا البلد بصفة خاصة، وحث أهل كل بلد بصفة عامة علي شكر نعم الله تعالي عليهم- لا سيما الأمن والطعام- بالتمسك بتعاليمه، وعدم الكفر بربوبيته، لأنه إذا كان هذا وعيدا لأهل البلد الحرام، فإنه وعيد لغيرهم من باب أولي.

*****

المشهد الثاني:

مشهد مهيب، وحدث عظيم في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو مشهد بناء البيت الحرام، الذي يصوره لنا القرآن الكريم، كما لو كانت الأعين تراه هذه اللحظة، وتسمع ما فيه الآن "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ"، وبينما نحن في انتظار بقية الخبر، إذ بالسياق يكشف لنا عنهما، ويرينا إياهما، كما لو كانت رؤية العين، لا رؤيا الخيال، إنهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان[١] "رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

([١]) في ظلال القرآن ١/١١٥.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".

وهو دعاء يأتي في ذات السياق الذي ورد فيه الابتهال الأول، سياقِ الكشف عن فضل إبراهيم- عليه السلام- على البشرية من بعده، وحرصه على من يأتي من نسله، وأن ذلك الحرص ينبغي أن يُقابل بالمثل، ويستدعي أن يُحفظ له الجميلُ باتباع ملته، والإيمان بالنبي السائر على منهجه.

وقيل: إن "هذا القول من كلام إبراهيم؛ لأنه الذي يناسبه الدعاء لذريته؛ لأن إسماعيل كان حينئذ صغيرا"[1]، ولكن النظم هنا يشير إلى أن ولدَه اسماعيل عليه السلام، كان يشاركه الدعاء والابتهال، لأنه كان يشاركه العمل والجهد في تهيئة بيت الله الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود، وهي إشارة تدل على أن حرصَ إبراهيم على امتثال أمر الله، وشفقَته على أمته وذريته كانا متغلغلين مغروسين في قلبه، وأنه عمل أيضا على أن يكونا كذلك في قلوب أبنائه وأهله، وذلك واضح مما كانا يدعوان به، ويتضرعان إلى الله تعالى من أجله، حيث كانا يلهجان ويكرران المطالب التالية:

أولًا- أن يتقبل الله عملهما "رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ".

ثانيًا- أن يديم الله تعالى عليهما نعمة الهداية إلي الإسلام "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ".

ثالثًا- أن تمتد نعمة الإسلام لتشمل كل من يأتي من نسلهما "وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ".

---

(1) التحرير والتنوير ١/٦٩٩ وما بعدها.

رابعا- أن يمنّ الله تعالى على ذريتهما بأن يرسل فيها رسولا عظيما، فيه من الحرص والرحمة بهذه الذرية ما يجعلهما في اطمئنان عليها، ويزيل ما يعتريهما من خوف وقلق تجاهها "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".

*****

وعن مناسبة هذه الآيات لما قبلها في السياق، يقول أبو حيان "لما دعا ربه بالأمن لمكة، وبالرزق لأهلها، وبأن يجعل من ذريته أمة مسلمة، ختم الدعاء لهم بما فيه سعادتهم دنيا وآخرة، وهو بعثه محمدًاﷺ فيهم، فشمل دعاؤه الأمن والخصب والهداية"(١).

وهكذا كل كلام بليغ، لابد من ترابط كلماته وتلاحم جمله وعباراته، بحيث تصير الأولي مؤدية إلي الثانية، والثانية مترتبة علي الأولي ومتناسلة منها، حتي تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، ويصير حال المنشئ لها حال الباني، يضع بيمينه ههنا، في حال ما يضع بيساره هناك، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين..(٢).

وإذا كان هذا شأن كل كلام بليغ يصدر عن البشر، فما بالنا بكلام الله ﷻ، الذي عجز البشر عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه "وقد وهم من قال: لا يطلب للآية الكريمة مناسبة، لأنها علي حسب الوقائع متفرقة، وفصل الخطاب: أنها علي حسب الوقائع تنزيلًا، وعلي حسب الحكمة ترتيبًا، فالمصحف... مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف... كما أنزل جملة إلي بيت العزة، ومن المعجز البيّن أسلوبه ونظمه الباهر...، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن

---

(١) البحر المحيط ٣٩٢/١

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ٩٣ بتصرف.

كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم"[1].

*****

وافتتح الخليل وولدُه اسماعيل تضرعَهما بقبول العمل الذي كانا يقومان به، وهو بناءُ بيت الله الحرام وتهيئتُه للطائفين والعاكفين والركع السجود، بقولهما "رَبَّنَا" جريا على العادة التي درجا عليها في افتتاح ابتهالاتهما بنداء المولى سبحانه وتعالى بعنوان الربوبية؛ لما سبق بيانه من اختصاص هذا الاسم بمعاني الرعاية وقضاء المصالح وتحقيق الحاجات، يضاف إلى ذلك أن هذا الاسم بما يشع منه من معنى التربية هو المناسب للدعاء بتقبل العمل، لعلم المربي سبحانه وتعالى أن قبول العمل والإثابة عليه له أثر كبير في نفوس الداعيين، إذ يشعرهما بالطمأنينة، ويجلب لهما السعادة، ويثيرهما إلى مزيد من العمل الصالح، كما أنه يدفع عنهما قلقا يسيطر عليهما، وخوفا يتردد بين جنباتهما.

ولعل هذه المعاني هي التي آثرت تقديمهما الابتهال بقبول الأعمال على غيره من الأدعية، على الرغم من أهميتها، وشدة حاجتهما إليها، يقول الإمام: "واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام، يقول صاحب الكتاب: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى"[2].

وفي إضافة الاسم الجليل إلي ضمير المتكلمَين "رَبَّنَا" ما يشعر بثقتهما في علمه بحالهما، واطلاعه على ما يعتلج في صدورهما، كما أن فيه إعلانا وافتخارا بأنه ليس لهما من يرعاهما ويقدر على تحقيق مطالبهما غير ربهما تبارك اسمه، وتعالى جده، يضاف إلى ذلك أن حذف حرف النداء فيه تأكيد لتلك المعاني،

([1]) البرهان في علوم القرآن للزركشي- تحقيق/ مصطفي عبد القادر عطا ٦٣/١.

([2]) دلائل الإعجاز ١٠٧.

وإشعار بإحساس الداعي بقربه الشديد من ربه الذي يدعوه ويتضرع إليه، فهو نداء فيه من الاستعطاف والإثارة ما لا يخفى، كما أن فيه إرشادا لكل داع ومبتهل.

وإيثارهما التعبير بـ "تَقَبَّلْ مِنَّا" دون "اقبل منا" لما فيه من الشعور بالتقصير الدافع إلى زيادة التضرع، وإظهار شدة الأمل في قبول العمل، إذ من المعلوم أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وفيه أيضا ما يدل على ما كان عليه إبراهيم واسماعيل- عليهما السلام- من رجاء شديد ورغبة واسعة في قبول أعمالهما بصفة عامة، وقبول عملهما في خدمة بيت الله الحرام بصفة خاصة، مما يجعل منهما نموذجا ملهما للبشرية.

يقول أبوحيان "والمراد بالتقبل: الإثابة، عبر بأحد المتلازمين عن الآخر، لأن التقبل هو أن يقبل الرجل من الرجل ما يهدي إليه، فشبه الفعل من العبد بالعطية، والرضا من الله تعالى بالتقبل توسعا، وحكى بعض المفسرين عن بعض الناس فرقا بين القبول والتقبل، قال: التقبل تكلف القبول، وذلك حيث يكون العمل ناقصا لا يستحق أن يقبل، قال: فهذا اعتراف من إبراهيم وإسماعيل بالتقصير في العمل، ولم يكن المقصود إعطاء الثواب، لأن كون الفعل واقعا موقع القبول من المخدوم، ألذ عند الخادم العاقل من إعطاء الثواب عليه، وسؤالهما التقبل بذلك، على أن ترتيب الثواب على العمل ليس واجبا على الله تعالى، انتهى ملخصا. ونقول: إن التقبل والقبول سواء بالنسبة إلى الله تعالى، إذ لا يمكن تعقل التكليف بالنسبة إليه تعالى"[١].

(١) البحر المحيط ١/٦٢١.

والذي يظهر لي أن المراد بالتقبل في ضراعة المتضرعين هو: الرضا المستلزم حصول الثواب والمكافأة من المدعو، لا سيما إذا كان المدعو هو الله جل في علاه، إذ المعهود منه عزوجل الكرم السابغ، والعطاء الذي لا حدود له.

وجملة "إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" تذييل جيء به لتعليل طلب التقبل منهما، وفي نظمها ضرب من المدح المقرون بالإثارة إلى تحقيق دعائهما، وتلبية طلبهما، حيث جيء بالوصفين على زنة فعيل التي للمبالغة، كما تم تعريف ركني الجملة، مع الإتيان بضمير الفصل "أَنْتَ" متوسطا بين هذين الركنين، وهذا مفيد للقصر بطريقين:

أحدهما: تعريف ركني الجملة.

الآخر: توسط ضمير الفصل بين المسند إليه والمسند.

والغرض من ذلك تمكين الكلام وتقريره[1]، من خلال الإبلاغ في كمال الوصفين وتأكيد ثبوتهما لله عزوجل ونفيهما عن أي أحد سواه، وهو من باب القصر الحقيقي، لأن معناه: السميع لدعائنا، العليم بقصدنا.

"وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب، إذ صدر منهما عمل وتضرع سؤال، فهو السميع لضراعتهما وسؤالهما التقبل، وهو العليم بنياتهما في إخلاص عملهما، وتقدّمت صفة السميع- وإن كان سؤال التقبل متأخرا عن العمل- للمجاورة، نحو قوله "يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ"(آل عمران ١٠٦)، وتأخرت صفة العليم لكونها فاصلة ولعمومها، إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات[2].

---

(1) يراجع بغية الإيضاح- للشيخ عبدالمتعال الصعيدي ٢/ ٢٢١.

(2) البحر المحيط ١/٦٢١.

وفصلت هذه الجملة عما قبلها، لما يعرف بكمال الانقطاع، حيث اختلفت الجملتان خبرا وإنشاء، والذي أراه أنه هنا اختلاف "لا يعلل الفصل بينهما، لأنه تعليل لا يحلل الأسلوب، ولا يقف على ما بينه من روابط، مع أننا نجد الروابط متينة وحية بين هاتين الجملتين، ويتحقق فيهما ما يتحقق في غيرهما ... وعلاقات المعاني بين الجمل لا تتأثر بأن هذه خبر وتلك إنشاء، وإنما هما سواء من حيث أنساب المعاني"[١]، إذ يبدو ارتباط هذه الجملة بسابقتها واضحا من حيث كونها تثير إلى إجابة دعائهما، مما يجعلها كالتعليل المشرب بالتأكيد لما سبق ابتهالهما به.

هذا بالإضافة إلى ما لـ "إنّ" في صدرها من مزية، فبجانب ما تفيده من تأكيد فإنها- أيضا- تربط بين الجملتين برباط وثيق لا يتحقق بغيرها من الحروف، فأنت تري الكلام بها مستأنفًا غير مستأنف، ومقطوعًا موصولًا معًا[٢].

*****

وبعد ابتهالهما بقبول العمل يأتي طلبُهما دوامَ الهداية إلى الإسلام، وسؤالُهما الله تعالى الثبات عليه "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"، وثنيا به لأن تحقيقه يعد مظهرا من مظاهر الرضا، ودليلا من أدلة قبول العمل، الذي تضرعا به قبله ، ومن ثم أتى معطوفا عليه، مقدما على ما بعده.

---

(١) دلالات التراكيب/ ٣٢٤، والقول بعدم جواز وصل الجملتين المختلفتين خبرا وإنشاء جرى فيه خلاف كثير، عرض له الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى في كتابه: دلالات التراكيب، مما يغني عن إعادته هنا. يراجع دلالات التراكيب ٣٢٤ وما بعدها.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ٢٧٣ وما بعدها.

وجاء هذا الدعاء مفتتحًا بقولهما "رَبَّنَا"، كما افتتحا به ما سبق من دعاء، لإظهار شدة الضراعة إلى الله تعالى، وبيان أن كل دعاء من هذه الأدعية مقصود لذاته، بجانب ما فيه من التلذذ والتبرك والتشرف بتكرار الاسم الكريم مضافا إلى ضميرهما.

وقولهما "وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ" أسلوب أمر غرضه الدعاء والتضرع بأن يديم الله تعالى عليهما نعمة الإسلام دينا، ونعمة الانقياد والاستسلام خُلُقا، لما لذلك من أثر بالغ فيما يشعران به من مشاعر إيمانية، وما يسعدان به من عطايا ربانية، وما اختصهما الله تعالى به من اصطفاء واجتباء يتمثل في رفع قواعد البيت الحرام، والمعنى: "مخلِصين لك، أو مستسلمين، من أَسلم إذا استسلم وانقادَ، وأيا ما كان فالمطلوبُ الزيادةُ والثباتُ على ما كانا عليه من الإخلاصِ والإذعانِ"[1].

هذا على قراءة الجمهور"مُسْلِمَيْنِ"، وقرأ ابنُ عباس وعوفُ الأعرابي "مُسلِمِين" على الجمع، دعاء لهما وللموجود من أهلهما، كهاجر، وهذا أولى من جعل لفظ الجمع مرادا به التثنية، وقد قيل به هنا[2]، لأن من يُعرف عنه الحرص على ذريته، لن يفوته الحرصُ على زوجه أمِّ ولده.

وجاءا بالجار والمجرور "لَكَ"، مع إمكان الاكتفاء بـ "مُسْلِمَيْنِ" لبيان جهة الإسلام وتخصيصها، إذ من الممكن أن يسبق إلى الفهم أن الإسلام والانقياد يكون له سبحانه وتعالى، كما يكون لغيره، فكان لا بد من ذكر الجار والمجرور احترازا من ذلك.

و "مِنْ" في قولهما "وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ" يمكن أن تكون للتبعيض؛ لأنه لما تقدّم الجواب لإبراهيم بقوله "لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" (البقرة ١٢٤) "علم أن

---

(1) إرشاد العقل السليم ١/٢٠٦.

(2) البحر المحيط ١/٦٢١.

من ذريته الظالم وغير الظالم، فدعا هنا بالتبعيض لا بالتعميم، فقال "وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا"[١]، ويمكن- على ما يبدو لي- أن تكون بيانية جيء بها لتأكيد طلبهما هداية ذريتهما إلى الإسلام وعدم صرفهم عنها، على سبيل المبالغة في الدعاء، والتأكيد في الطلب، ثم تفويض أمر الإجابة إلى الله تعالى، إن شاء هدى بعضهم، وإن شاء هداهم أجمعين، وعندئذ لا تعارض بينها وبين كونها تبعيضية.

وخصا ذريتهما بالدعاء؛ شفقةً وحُنوا، ولأن في صلاح نسل المتقين نفعا كثيرا لمتبعهم، إذ يكونون سببا في هداية من وراءهم، ولأن شعور إبراهيم وولده إسماعيل- عليهما السلام- بقيمة نعمة الإسلام التي أسبغها الله تعالى عليهما يدفعهما إلي الحرص عليها في عقبهما، وإلي دعاء ربهما ألا يحرم ذريتهما من هذه النعمة الذي لا تضاهيها نعمة، يقول ابن عاشور "وإنما سألا ذلك... جمعا بين الحرص على حصول الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء؛ لأن نبوءة إبراهيم تقتضي علمه بأنه ستكون ذريته أمما كثيرة، وأن حكمة الله في هذا العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتماله على الأخيار والأشرار، فدعا الله بالممكن عادة، وهذا من أدب الدعاء"[٢].

وجيء بالمفعول"أُمّة" نكرة للتكثير[٣]، وبالجار والمجرور"لَكَ" مع المفعول الثاني"مُسْلِمَةً"، كما جيء به في دعائهما لنفسيهما "مُسْلِمَيْنِ لَكَ"؛ للإلماح إلى أن حبهما لذريتهما وحرصهما عليها- مهما كثر عددها- مماثل لحب كل واحد منهما لنفسه، وحرصه عليها.

*****

(١) التحرير والتنوير ١/٧٠٠.

(٢) السابق.

(٣) ينظر الإيضاح بشرح الشيخ الصعيدي١/ ٩٤.

يقول صاحب التحرير والتنوير: "وقوله "وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا" سؤال لإرشادهم إلى كيفية الحج الذي أُمرا به من قبل أمرا مجملا"[1]، ويبدو لي أن هذا التعبير غير دقيق، لأن الأمر بالدعوة إلى الحج كان بعد إتمامهما بناء البيت، والأدق- من وجهة نظري- أن يكون إبراهيم واسماعيل- عليهما السلام- قد دعوا بذلك، لما فهماه من أن هذا البيت سيكون موضع نسك وعبادة، ولكنهما لا يعرفانها، ولا يحيطان بها علما، فدعوا الله تبارك وتعالى أن يخبرهما بتلك المناسك، ويعلّمهما إياها، ليقوما بها على الوجه الذي يرضيه عزوجل، ولعل هذا ما دفعهما لعطف الدعاء بالتوبة والمغفرة من التقصير في قولهما "وَتُبْ عَلَيْنَا"، على ما دعوا به هنا، جريا على عادتهما في طلب جبران ما يعتري طاعتهما من التقصير، الذي هو سمةُ البشر أجمعين.

والمناسك جمع منسك، مشتق من نسك، وهو أصلٌ صحيح يدلُّ على عِبادةٍ وتقرُّب إلى الله تعالى[2]، والمقصود به في هذا السياق: الأعمال التي سيقومان بها عند هذا البيت، والتي يتحقق بها الغرض من رفع قواعده، والتي عرفت فيما بعد بأنها مناسك الحج.

وحرف السين المكسورة من حروف الهمس، وهو يتصف بالرخاوة واللين، وفي توسطه كلمة "مَنَاسِك" إلماح إلى ما تتركه هذه الأفعال في نفس من يؤديها من راحة وهدوء، وما تطبعه على تلك النفس من ذلة وانكسار لله الواحد القهار، ولعل هذا ما كان يعتريهما من مشاعر عند رفعهما قواعد البيت، وما فهماه من انسحابه على جميع الأفعال التي تُودَّى عنده، ولعله أيضا من بعض أسرار إيثارهما هذه الكلمة مضافة إلى الضمير العائد عليهما، والله تعالى أعلم.

---

(1) التحرير والتنوير ١/٧٠٠.

(2) مقاييس اللغة – مادة نسك.

والرُّؤْيَةُ: إدراك الْمَرْئِيُّ ... بالحاسّة وما يجري مجراها ... ورَأَى إذا عدّي إلى مفعولين اقتضى معنى العلم[١]، وعبرا به عن العلم والإحاطة هنا؛ للإلماح إلى رغبتهما في أن يكون إعلامهما بالمناسك شبيها بالرؤية البصرية في الوضوح والبيان، لفهمهما أن ذلك سيؤخذ عنهما.

*****

أما طلبهما التوبة بعد ذلك "وَتُبْ عَلَيْنَا" فقد سبقت الإشارة إلى أنه من باب خوفهما من التقصير في أداء هذه المناسك على الوجه الذي يرضاه المولى سبحانه وتعالى، لأن تقصيرهما قد يفوت شيئا من المقاصد التي لأجلها أمرهما المولى سبحانه وتعالى برفع قواعد البيت الحرام، يقول البقاعي "ولما كان الإنسان محل العجز فهو أحوج شيء إلى التوفيق، قال "وَتُبْ عَلَيْنَا" إنباءً بمطلب التوبة إثر الحسنة، كما هو مطلب العارفين بالله المتصلين بالحسنات، وقد رجعا بها إلى من له الخلق والأمر"[٢].

ولا مانع مما قاله أبو حيان من أن "... توبة خواص الخواص لرفع الدرجات، والترقي في المقامات، فإن كان إبراهيم وإسماعيل دعوا لأنفسهما بالتوبة، وكان الضمير في قوله "وَتُبْ عَلَيْنا" خاصا بهما، فطلبهما التوبة هنا من هذا القسم ... ويحتمل أن يريد التثبيت على تلك الحالة مثل: "رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ"، وإن كان الضمير شاملا لهما وللذرية، كان الدعاء بالتوبة منصرفا لمن هو من أهل التوبة، وإن كان الضمير قبله محذوفا مقدرا، فالتقدير على عصاتنا، ويكون دعاء بالتوبة للعصاة"[٣].

---

(١) مفردات القرآن – مادة رأى.

(٢) نظم الدرر ١/٣٤٣.

(٣) البحر المحيط ١/٦٢٣ وما بعدها.

وجملة "إِنَكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" يقال فيها مثل ما قيل في جملة "إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"، فهي تذييل وتعليل لطلبهما التوبة وما سبقه من أدعية، وفي نظمها ضرب من المدح المقرون بالإثارة إلى تحقيق دعائهما، وتلبية طلبهما، حيث جيء بالوصفين على صيغتين من صيغ المبالغة، كما تم تعريف ركني الجملة، مع الإتيان بضمير الفصل "أَنْتَ" متوسطا بين هذين الركنين، لإفادة القصر بطريقين يتآزران معا لتقرير الكلام وتحقيق الإبلاغ في كمال الوصفين وتأكيد ثبوتهما لله عزوجل ونفيهما عن أي أحد سواه.

وهاتان الصفتان مناسبتان؛ لأنهما دعوا بأن يجعلهما مسلمين، ومن ذريتهما أمة مسلمة، وبأن يريهما مناسكهما، وبأن يتوب عليهما، فناسب ذلك ذكر التوبة عليهما، والرحمة لهما، وقدم ذكر التوبة على الرحمة، لمجاورتها الدعاء بطلب التوبة في قولهما "وَتُبْ عَلَيْنا"، وتأخرت صفة الرحمة لعمومها، ولما فيها من تناسب وتناغم مع الفاصلتين السابقة واللاحقة[1]، وقد سبقت الإشارة إلى سبب فصل هذه الجملة عن سابقتها، مع بيان ما لـ "إنّ" من مزية في أولها في المطلب السابق.

*****

وفي المطلب الرابع من مطالبهما قالا "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".

"ومظهر هذه الدعوة هو سيدنا محمد ﷺ، فإنه الرسول الذي من ذرية إبراهيم وإسماعيل كليهما، أما غيره من رسل العرب فليسوا من ذرية إسماعيل"[2] و خصا ذريتهما بهذا الدعاء أيضا؛ لأن الذرية أحق بالشفقة والمصلحة، قال تعالي: "قوا

---

(1) ينظر البحر المحيط ٦٢٦/١.

(2) التحرير والتنوير ٧٢٢/١.

أنفسكم وأهليكم نارا"(التحريم ٦)، ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم، وتابعهم علي الخيرات، كما سبق ذكره.

وهذا الابتهال- إلي جانب ما فيه مما سبق توضيحه - فإنه يعد بشارة ببعث سيدنا محمد ﷺ، ففي الأثر: أنه لما دعا إبراهيم عليه السلام بهذا الدعاء قيل له: قد استجيبت لك، وهو يكون في آخر الزمان، روي الإمام أحمد عن العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنه قال: "سأخبركم بأول أمري، أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسي، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني"[١].

وقولهما "ابْعَثْ" أسلوب أمر غرضه الدعاء والرجاء كسابقيه، وتعليقه بـ "فِيهِمْ" يشير إلي عموم رسالة النبي ﷺ لهم ولغيرهم، حيث عبر بـ "فِيهِمْ"، ولم يقل: لهم، لتكون الدعوة بمجيئ رسول برسالة عامة، فلا يكون ذلك الرسول رسولًا إليهم فقط، ولذلك حذف متعلق "رَسُولًا" ليعم[٢]، وعلي هذا فقولهما "وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا" يدل علي أنهما يدعوان بإرسال رسول- إلي ذريتهما- برسالة عامة، تشملهم وغيرهم، وفي الوقت نفسه يتميزون به، وتكون لهم به خصوصية عن غيرهم من سائر الأمم، وفيه من تشريفهم ورفعة شأنهم ما لا يخفى.

كما أن مادة "بَعَثَ" بدلالتها علي- "إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث"[٣]- فيها إشارات منها: اعتقادهما أن أمر البعث والإرسال من خصوصيات الله تعالي وحده دون غيره، ومنها: الإشارة إلي ما سيحدث بسبب

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٢٧/٤ برقم : ١٧١٩٠، والمستدرك للحاكم- تحقيق مصطفي عطا ٤٥٣/٢ برقم : ٣٥٦٦ وشعب الإيمان للبيهقي- تحقيق محمد السيد زغلول ١٣٤/٢ برقم: ١٣٨٥.

(٢) التحرير والتنوير ٧٠٠/١.

(٣) المفردات مادة بعث ٦٨ .

إرساله ﷺ من تغيير في كثير من الأوضاع والأحوال، مما يعني أن ما سيترتب على بعثه من خير ستنال ذريتهما منه الشيء الكثير، والنصيب الكبير[١].

أما "الواو" فهي لعطف "ابْعَثْ" علي "تَقَبَّلْ"، والتقدير "ربنا تقبل منا ... واجعلنا ... وأرنا ... وتب علينا ... وابعث فيهم"، "وتوسيط النداء بين المتعاطفين لإظهار مزيد الضراعة، والالتجاء إلي الرب الكريم سبحانه وتعالي"[٢].

ومما يلحظ أن النداء بـ "رَبَّنَا" تكرر في هذا الدعاء ثلاث مرات: قبل طلبهما قبول العمل "رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ..."، وقبل طلبهما استمرار الهداية إلي الإسلام "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ..." وأخيرًا قبل طلبهما بعث سيدنا محمد ﷺ إلي ذريتهما "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ..."، في حين أنه لم يتكرر مع مطالب أخري، اكتفيا فيها بالعطف "وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ...".

ويظهر لي أن تكرار النداء بالاسم الكريم قبل مطالب بعينها، يشير إلي أهميتها الشديدة عند الطالب لها، وأنها أصول يبني عليها غيرها، فيدفعه ذلك إلي مزيد من الإلحاح والتوسل في طلبها، بذكر اسم "رَبّ" مضافا إلى ضميره قبل كل مطلب منها، أما غيرها فلأنه يحصل بحصولها اكتفي بعطفه عليها [٣].

ونكر "رَسُولًا" للتعظيم، وليتسنى وصفه بالنعوت التي هي مناط قصد إبراهيم وولده إسماعيل في هذا السياق، ومنها قوله "مِنْهُمْ"، الذي يشير إلي "تميز ذريته وكمال حالهم من وجهين:

---

(١) من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره – رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية بالمنوفية– للباحث/ صبحي إبراهيم عفيفي المليجي/ ١٣.

(٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين– سليمان بن عمر الجمل ٢٣٨/١.

(٣) من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره / ١٣.

أحدهما- أن يكون فيهم رسول يكمل لهم الدين والشرع، ويدعوهم إلي ما يثبتون به علي الإسلام.

والآخر- أن يكون ذلك المبعوث منهم لا من غيرهم؛ لوجوه: أحدها: أن يكون محلهم ورتبتهم في العز والدين أعظم...وثانيها: أنه إذا كان منهم فإنهم يعرفون مولده ومنشأه، فيقرب عليهم الأمر في معرفة صدقه وأمانته، وثالثها: أنه إذا كان منهم كان أحرص الناس علي خيرهم، وأشفق عليهم، مما لو كان من غيرهم إذا أرسل إليهم"[١]، ولا يخفى ما في ذلك من حرص إبراهيم وإسماعيل على ذريتهما وانشغالهما الشديد بها.

وقوله: "يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ" صفة ثانية لـ "رَسُولًا" جاءت لتبرز جانبًا مهما من جوانب عظمة الرسول المبشر به ﷺ، وفيها أيضا برهان جديد على انشغال الرسولين الكريمين بالذرية التي يتنكر كثير من أفرادها لهما، ويعرضون عن اتباع الرسول السائر على منهجهما.

فالتعبير بـ "يَتْلُو" فيه إشارة إلي أن قراءة النبي ﷺ الآيات عليهم، ليست قراءة مطالعة، إنما هي قراءة لها خصوصية التذكير والتأثير، الذي يستتبع العلم والعمل، يقول ابن فارس: "التاء واللام والواو أصل واحد، وهو الاتباع، يقال: تلوته إذا تبعته، ومنه تلاوة القرآن لأنه يتبع آية بعد آية"[٢]، ويقول الراغب "التلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب، أو ما يظن فيه ذلك، وهو أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة"[٣]، وأوثر التعبير بالمضارع، لدلالته علي

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٤/٧١، ٧٢.

(٢) مقاييس اللغة – مادة تلو.

(٣) المفردات – مادة تلو.

التجدد[١]، وفيه إشارة إلي تجدد دور الرسول ﷺ واستمراره في أمته عامة وفي تلك الذرية خاصة، حتي بعد انتقاله إلي الرفيق الأعلى، وأن واجب أتباعه- من هذه الذرية وغيرها- تلاوة القرآن، لا قراءته مجرد قراءة [٢].

فلأن القرآن معجزة النبي ﷺ وشاهد صدقه من الله عز وجل "لم تنقض هذه الشهادة بموت النبي ﷺ بل استمرت علي مر الأيام وكر الأعوام، لبقاء الشاهد وتعاليه عن شوائب النقص وسمات الحدث، وإلي ذلك الإشارة بقول النبي ﷺ "ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"[٣]"[٤].

و"الآيات" جمع "آية"، وفي المقصود بها رأيان، أحدهما: أنها العلامات الدالة علي التوحيد والنبوة وغيرهما[٥] والآخر: أنها الجملة من القرآن، سميت آية لدلالتها علي صدق الرسول ﷺ بمجموع ما فيها، من دلالة صدور مثلها من أمي لا يقرأ ولا يكتب، وما نسجت عليه من نظم أعجز الناس عن الإتيان بمثله، ولما اشتملت عليه من الدلالة القاطعة علي توحيد الله وكمال صفاته[٦]، ويبدو لي أن الرأي الثاني أنسب للسياق.

وفي إضافة الـ "الآيات" إلي ضمير الحق سبحانه وتعالي من تعظيمها وإجلالها مالا يخفي، كما أنه يشير إلي ضرورة التصديق بها والإيمان بمن نزلت عليه، لأن مصدرها الحق ﷻ، وفي تقديم الجار والمجرور "عَلَيْهِمْ" علي المفعول "آيَاتِكَ"

---

(١) يراجع الإيضاح بشرح الشيخ الصعيدي ١/١٦٦.

(٢) من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره / ١٤.

(٣) البخاري – كتاب فضائل القرآن – باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل.

(٤) نظم الدرر ٢/٦٠٠، ٦٠١.

(٥) ينظر: الكشاف ١/١٣٩، روح المعاني ١/٣٨٧.

(٦) التحرير والتنوير ١/٧٢٣.

دلالة علي البدء بهم، وإعلامهم بوحي الله تعالي قبل غيرهم، اهتماما بهم، وحرصا عليهم.

وقوله "وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" صفة ثالثة لـ "رَسُولًا" تكشف أيضا عن جانب مهم من جوانب حرصهم على ذريتهم، والمقصود بـ "الْكِتَابَ": القرآن الكريم، "وفي تسميته بهذين الاسمين توجيه إلي أن من حقه العناية بحفظه في موضعين، لا في موضع واحد، يعني: أنه يجب حفظه في الصدور وفي السطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة بحفظ حافظ حتي يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، ... ولا ثقة بكتاب كاتب حتي يوافق ما هو عند الحفاظ، بالإسناد الصحيح المتواتر"[١].

وقوله "يُعَلِّمُهُمُ" إشارة إلي أثر الرسول ﷺ في إفهام الذرية معاني القرآن، وبيان مراميه، والوقوف علي أحكامه للتمسك بها والعمل بمقتضاها، إذ العلم معناه: إدراك حقيقة الشيء[٢]، وفي عطف جملة "يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ" علي ما قبلها بالواو إشارة إلي اقتران التعليم والتفهيم بالتلاوة، لأن ذلك أجدي وأنفع في تربية الذرية.

أما "الْحِكْمَةَ" فقد اختلف المفسرون في المراد بها علي وجوه:

أحدها: معرفة الدين والفقه فيه، وثانيها ... سنة رسول الله ﷺ، وثالثها: أن الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل...، ورابعها: قيل: إن المراد بـ "الْكِتَابَ" الآيات المحكمات، والمراد بـ "الْحِكْمَةَ": الآيات المتشابهات[٣].

والذي أميل إليه هو الرأي الثالث لكونه أعم وأشمل، وأولى بالقبول، لأن الإنسان لن يستطيع الفصل بين الحق والباطل، إلا إذا كان علي معرفة بالدين-

---

(١) النبأ العظيم/ ٢٤.

(٢) المفردات – مادة علم.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٤/ ٧٣.

كتابا وسنة– وعلم واسع بالمحكمات والمتشابهات من الآيات، كما أنه يعد الأقرب لما تدل عليه مادة: "حَكَمَ"، يقول الراغب: "حكم أصله: منع منعا لإصلاح ...، والحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل"(١)، هذا بالإضافة إلي أن ذكر "الْحِكْمَةَ" متأخرة عن التلاوة والتعليم يشير إلي أنها مترتبة عليهما، وأنها كالثمرة لهما، وعطفها بالواو علي "الْكِتَابَ" يدل علي مغايرتها له كما هو الغالب في العطف بها، مما يقوي أن المقصود بها: الفصل بين الحق والباطل، خاصة في الأمور التي لم يرد فيها حكم في الكتاب ولا في السنة، مما يعني تأهيلهم لاستنباط الأحكام الشرعية فيما يستجد في حياتهم، لئلا يحيدوا عن منهج الكتاب المنزل إليهم، فيتسبب عن ذلك عقاب الله تعالى لهم.

وتعليم النبي ﷺ لأمته "الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" يشير إلي تحليه ﷺ بالحلم والصبر وسعة الصدر؛ إذ لا يخفي ما في ذلك من مشقة؛ لأنه يحتاج إلي تكرار ومداومة، ولذا جاء التعبير بالمضارع "يُعَلِّمُهُمُ" معبرا عن ذلك بزمانه وجرسه، وهذا هو أحد جوانب العظمة والحرص، الذي تكشف عنه هذه الصفة من أوصاف الرسول المُبتهَل ببعثه فيهم، يقول أبو حيان: "وأسند التعليم للرسولﷺ؛ لأنه هو الذي يلقي الكلام إلي المتعلم، وهو الذي يفهمه ويتلطف في إيصال المعاني إلي فهمه، ويتسبب في ذلك"(٢).

وقوله "وَيُزَكِّيهِمْ" صفة رابعة من أوصاف الرسول ﷺ، تشير إلي اهتمامه بالباطن والظاهر، "ومعناها: يطهرهم باطنا من أرجاس الشرك وأنجاس الشك،

---

(١) المفردات – مادة حكم.

(٢) البحر المحيط ١/ ٣٩٣.

وقاذورات المعاصي، وظاهرا بالتكاليف التي تمحص الآثام وتوصل الأنعام، قال ابن عباس رحمه الله: التزكية: الطاعة والإخلاص"[١].

وإيثار مادة "زكى" بما تدل عليه من "نماء وزيادة"[٢]، وإسنادها إلي ضمير الرسول ﷺ فيه إشارة إلي بلوغهم في ذلك منزلة عالية بسبب النبي ﷺ، يقول البقاعي: "معني "يُزَكِّيهِمْ": يطهر قلوبهم بما أوتي من دقائق الحكمة، فترتقي بصفائها ولطفها من ذروة الدين إلي محل يؤمن عليها فيه، أن ترتد علي أدبارها، وتُحرّف كتابها كما فعل من تقدمها"[٣].

واختيار زمن المضارع، للتعبير به في الأفعال الثلاثة "يَتْلُو"، "يُعَلِّمُهُمُ"، "يُزَكِّيهِم" لكونه يدل علي التجدد المستمر- كما سبق توضيحه- فيه إشارة أخري إلي خلود الرسالة الإسلامية، وبقاء دعوة النبي ﷺ في البشرية إلي يوم القيامة، فدوره ﷺ باق، يحمله مِن بعده العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وبذلك يبقي للأفعال الثلاثة دلالتها علي الاستمرار إلي أن تقوم الساعة[٤].

وجاء ترتيب هذه الأفعال في الذكر علي حسب ترتيبها في الوجود، "لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن، ثم يكون تعليم معانيه، قال تعالي: "فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ"(القيامة ١٨،١٩)، ثم العلم تحصل به التزكية"[٥].

وتقديم العلم علي التزكية فيه إشارة إلي شرف العلم وأهميته بالنسبة لهذه الأمة، كما أن تقديمه يتناسب مع المقام، لأنه "لما كان ظاهر دعوته عليه

---

(١)البحر المحيط ١/ ٣٩٣.

(٢) مقاييس اللغة – مادة زكى.

(٣) نظم الدرر ١/ ٢٤٤.

(٤) من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره / ١٦.

(٥) التحرير والتنوير ١/ ٧٢٣ .

السلام: أن البعث في الأمة المسلمة، كانوا إلي تعليم ما ذكر أحوج منهم إلي التزكية، فإن أصلها موجود بالإسلام"[١]، بخلاف تقديمها في سورة الجمعة[٢]، لأنه سبحانه لما ذكر بعثه في الأميين عامة، اقتضي المقام تقديم التزكية، التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر، ليقبلوا ما جاءهم من العلم، وأما تقديمها في سورة آل عمران[٣] مع ذكر البعث للمؤمنين، فلاقتضاء الحال بالمعاتبة علي الإقبال علي الغنائم، الذي كان سبب الهزيمة، لكونه إقبالا علي الدنيا، التي هي أم الأدناس[٤].

وجملة "إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" أبلغ تذييل لهذا الطلب، لما يلي:

أولا- تأكيدها بأكثر من مؤكد (إن- القصر بطريقين) للإشارة إلي عمق إيمانهما باتصاف ربهما سبحانه وتعالي بهاتين الصفتين.

ثانيا- مجيء صفتي "الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" بزنة فعيل، للإشارة إلي أنه لا حدود عندهما لاتصافه تعالى بهما.

ثالثا- اختيار هاتين الصفتين دون غيرهما من أوصاف الله عز وجل، له أثره في إجابة الدعاء، لأن "الْعَزِيز" معناه: الغالب الذي لا يعجزه شيء أيا كان، و "الْحَكِيمُ" بمعني: المحكم، فهو فعيل بمعني مفعل، من "أحكم، إذا أتقن الصنع بأن

---

(١) نظم الدرر ١/ ٢٤٤.

(٢) في قوله تعالي "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (الجمعة:٢).

(٣) في قوله تعالي: " لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَي الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ" (آل عمران ١٦٤).

(٤) نظم الدرر ١/ ٢٤٤.

حاطه من الخلل"[١]، والمقصود: أن الله تعالي يضع الأمور في نصابها الصحيح، لعلمه بما يصلح خلقه وما يفسدهم، ومن كانت العزة من صفاته فهو حقيق بإجابة دعائهما، ومن كانت الحكمة صفة له فهو عالم بأن صلاح ذريتهما في إرسال سيدنا محمد ﷺ إليها، ولا يخفى ما يوجبه ذلك على أهل مكة- الذين هم امتداد ذرية إبراهيم واسماعيل- من معرفة هذا الأمر وتقديره، باتباع النبي الذي هو دعوة إبراهيم عليه السلام.

وأخلص مما سبق إلى:

أن حرص الخليل وولده اسماعيل على ذريتهما دفعهما إلى اغتنام العمل الصالح الذي يقومان به في التضرع إلى الله تعالى بما سبق بيان أسراره، وأن تمهيدهما للأدعية بأسلوب النداء المشعر بالتوسل والاستعطاف، ثم التعبير بأسلوب الأمر المقصود منه التضرع والرجاء، مع تذييل كل دعاء بأسلوب القصر المقرر قدرة الله تعالى على تحقيق ما يطلبانه، كلها أساليب تضافرت وتعانقت في بيان ما يقصدان إليه، مع الشعور بأملهما في تحقيقه.

*****

وبعد هذا الدعاء الكاشف عن مدى حب إبراهيم عليه السلام لذريته، ومدى حرصه عليها وانشغاله بها، مهما تباعدت عنه أجيالها يأتي التحذير القرآني الشديد من الرغبة عن ملته، ومعاداة النبي الذي هو دعوته، في قوله تعالى "وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ..."(البقرة ١٣٠).

وجيء به في صورة الاستفهام؛ لكونه يهز النفس، ويوقظ العقل ويحركه إلى إدراك مقاصد الكلام وفهم مراميه، حيث إنه في أصل الوضع يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير، ليقع الجواب في موقعه، وهذا من شأنه أن يدفع المخاطب إلى توجيه

([١]) التحرير والتنوير ١/ ٤١٥.

كل اهتمامه إلى ما يُلقى إليه، حتى يتمكن من فهمه، ثم الإجابة عليه، يقول الإمام "واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه لتنبيه السامع، حتى يرجع إلى نفسه... ويعي بالجواب"[1].

بجانب ما يفيده هنا من "إنكار واستبعاد[2] أن يكون في العقلاء من يرغبُ عن ملة إبراهيم، التي هي الحقُّ الصريحُ والدين الصحيحُ"[3]، إذ ليس من المنطقي، ولا مما يسوغه العقل، بعد بيان هذا الحرص الشديد، وإيضاح هذا الانشغال الكبير أن يرغب أحد من أفراد هذه الذرية عن ملة ذلك الأب الحاني، والإمام الراعي، بمعاداة الرسول الذي هو دعوته، ولعل هذا من أسرار تعبير الذكر الحكيم بقوله "إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ"، و"السَّفَهُ: خفّة في البدن، ومنه قيل: زمام سَفِيهٌ: كثير

---

(1) دلائل الإعجاز ١١٩.

(2) دلالة الاستفهام على الإنكار والاستبعاد أو غيرهما من المعاني قضية بلاغية عرض لها كثير من البلاغيين قديما وحديثا، وهم بين قائل: بأن المعاني غير الحقيقية المستفادة من الاستفهام وغيره من أساليب الإنشاء الطلبي معان مجازية (ينظر: عروس الأفراح ٢/٢٩٠، والمطول/٢٣٥، وحاشية السيد على المطول /٢٣٥)، وقائل بأنها من باب الكناية (ينظر: حاشية الدسوقي ٢/٢٩٢)، وقائل بأن هذه المعاني من مستتبعات التراكيب (ينظر: عروس الأفراح ٢/٣٠٦)، ولست هنا بصدد المفاضلة بين هذه المذاهب، حيث قام بذلك شيخ البلاغيين المحدثين العلامة الدكتور محمد أبو موسى، وتابعه في ذلك الدكتور/ محمود توفيق سعد، والدكتور/ محمود موسى حمدان، وأراني مقتنعا بوجهه نظرهم في القول بأن هذه المعاني من مستتبعات التراكيب (ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف – الطبعة الثانية – ٣٦٥، دلالات التراكيب– ٢١٦، الاستفهام القرآني دقائق ورقائق د. محمود توفيق سعد ٧/ وما بعدها، أساليب الإنشاء الطلبي وطرق إفادتها غير معانيها الحقيقية د. محمود موسى حمدان مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية العدد ١٢).

(3) إرشاد العقل السليم ١/٢٠٧.

الاضطراب، وثوب سَفِيهٌ: رديء النّسج، واستعمل في خفّة النّفس لنقصان العقل"[١].

هذا إذا كان الغرض من الاستفهام الإنكار والاستبعاد، أما إذا كان الغرض منه النفي، بمعنى: لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من كان في عقله سفه، أفاد ذلك القصر بطريق النفي والاستثناء، الذي يستعمل عندما يواجه البيان عقيدة رافضة، ومخاطبا منكرا أشد الإنكار، يقول الإمام عبدالقاهر "وأما الخبر بالنفي والاستثناء ... فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه"[٢].

وبذلك يجمع النظم الحكيم لإيصال رسالته إلى مشركي مكة بين الاستفهام بخصائصه، والقصر بمميزاته؛ لينبه إلى تأكيد المعنى بطريقين: **أولهما**- نفي رغبة أي أحد من العقلاء عن ملة إبراهيم وعن وصاياه، **والآخر**- إثبات ذلك لمن سفه نفسه وفقد عقله، وبذا يتبين سفاهة المعاندين لرسول الله ﷺ من مشركي مكة، ويُصرف الناس عن الإقبال عليهم والاستماع لهم.

ثم يعود النظم الحكيم إلى بيان مناقب إبراهيم التي كانت سببا في اصطفاء الله تعالى له، إعلاما بها، ودعوة إلى التأسي به فيها، ففي قوله تعالى "إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"(البقرة ١٣١) دعوة موجهة إلى مشركي مكة تتضمن الاقتداء بأبيهم إبراهيم في سرعة الاستجابة لداعي الإسلام، وفي قوله تعالى "وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"(البقرة ١٣٢) دعوة إلى العمل بوصيته التي ينصح فيها بنيه وذريته بالتمسك بالإسلام والموت عليه، وفي قوله "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني – مادة سفه.

(٢) دلائل الإعجاز/ ٣٣٢.

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.(البقرة ١٣٣) إعلام بامتثال أبنائه الذين هم خير من مشركي مكة لوصيته، ودعوة للاقتداء بهم في امتثال وصية أبيهم إبراهيم وتنفيذها، مما يعني الإيمان بالنبي السائر على ملته، والذي يعد استجابةً لدعوته.

*****

الموضع الثاني:

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"(البقرة ٢٦٠).

يأتي دعاء الخليل هذا في سياق حديث سورة البقرة عن قدرة الله تعالى بصفة عامة، وقدرته على إحياء الموتى وبعثهم بصفة خاصة، بدءًا من آية الكرسي، التي تتحدث عن بعض صفاته تبارك اسمه، ومرورا بحادث النمروذ الذي ادعى قدرته على إحياء الموتى، فأخزاه الله عزوجل، وفضحه على رؤوس الأشهاد "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"(البقرة ٢٥٨)، وتعريجا على حادث الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، فتساءل عن كيفية إحياء الله تعالى لها بعد موتها؟ فأراه الله تعالى ذلك في نفسه وفي حماره "أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة ٢٥٩).

ومن ثم فإن مشهد إبراهيم عليه السلام وهو يتضرع إلى الله تعالى، طالبا منه أن يطلعه على كيفية إحيائه عزوجل الموتى يأتي معطوفا على المشهدين السابقين، لتتأكد من خلال المشاهد الثلاثة قدرة المولى سبحانه وتعالى على هذا الأمر، بالأدلة الحية، والوقائع الملموسة، ليوقنَ بذلك الكافرون، ويزداد الذين آمنوا إيمانا.

ويلحظ أن النظم الحكيم بدأ المشهد الأول منها بأسلوب الاستفهام "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ" لما له من خصائص سبق بيانها، ولما يفيده هنا من حمل المخاطب على الإقرار[١] بما يعرفه عما حدث لذلك الذي حاج الخليل في ربه، وادعى قدرته على شيء مقصور على الله "رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ"، قصر إفراد لا يشاركه فيه أحد، حيث "قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ"، ويلحظ في نظم الجملة الاستفهامية أمران:

أولهما- التعبير عن العلم بفعل الرؤية "أَلَمْ تَرَ"، لما فيه من بيان أن خبر ذلك الشخص ومصيره نال قدرا كبيرا من الرواية والانتشار، بحيث لا يكاد يخفى على أحد من المخاطبين.

الآخر- توجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ- مع أن المقصود به منكرو البعث، الكافرون بالرسول ﷺ- لما فيه من الإشعار بأهمية الخبر، وأهمية ما يحمله من دلالات، توجب على المخاطبين المقصودين أن يعوها ويفهموها.

"وقدّم مشهد المار على مشهد إبراهيم، وإن كان إبراهيم مقدّما في الزمان على المار، لأنه تَعَجّبَ من الإحياء بعد الموت، وإن كان تعجب اعتبار فأشبه الإنكار، وإن لم يكن إنكارا فكان أقرب إلى قصة النمروذ ... وأما إن كان المار كافرا

---

(١) يراجع الإيضاح بشرح الشيخ الصعيدي ١/ ٢٦١.

فظهرت المناسبة أقوى ظهور، وأما قصة إبراهيم فهي سؤال لكيفية إراءة الإحياء، ليشاهد عيانا ما كان يعلمه بالقلب، وأخبر به نمروذ"[1].

ويقول البقاعي: "لقد استولى الترتيب والتعبير في هذه الآيات الثلاث على الأمد الأقصى من الحسن، فإنها بدئت بمن أراد أن يخفي ما أوضحته البراهين من أمر الإله في الإحياء، بأن ادعى لنفسه المشاركة بإحياء مجازي تلبيسا، بلفظ "إِلَى" الدال على بعده ولعنه وطرده، ثم بمن استبعد إحياء القرية، فأراه الله سبحانه وتعالى كيفية الإحياء الحقيقي، آية له وتتميما للرد على ذلك، مع الإقبال عليه بالمخاطبة ولذة الملاطفة، ثم بمن سأل إكرام الله تعالى له بأن يريه كيف يحيي، فيثبت...

والمراد: التحذير من حال الأول، والندب إلى الارتقاء عن درجة الثاني إلى مقام الثالث، الذي حقيقته الصدق في الإيمان ... ولذلك عبر في قصته بقوله "وَإِذْ" ولم يسقها مساق التعطيب كالأول"[2].

*****

فالواو إذن لعطف هذا المشهد على المشهدين السابقين، مع اختلاف حال أصحابهم في درجة الإيمان بقدرة المولى سبحانه وتعالى على الإحياء بعد الإماتة، ولا غرابة في ذلك؛ إذ الغرض الرئيس من سرد المشاهد الثلاثة هو أن يوقن بذلك الكافرون، ويزداد الذين آمنوا إيمانا، كما سبق بيانه.

و"إذ" تعود بنا إلى زمن هذا الابتهال، لنعايشه ونتصوره، فينزل في نفوسنا المنزلة اللائقة، ويتحقق الغرض الرئيس من ذكره، باستحضار المخاطبين له في عقولهم، ووعيهم له بأفئدتهم، فهي "ظرف منصوب بفعل مقدر"، خوطب به النبى

---

(1) البحر المحيط ٢/ ٦٤٢.

(2) نظم الدرر ١/ ٥٠٩.

ﷺ، للاهتمام بالخبر، والمعنى: اذكر وقت تضرع إبراهيم بقوله "رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى".

وابتدأ الخليل ابتهاله بقوله "رَبِّ" المضاف إلى ضميره، المحذوف تخفيفا؛ جريا على عادته في نداء ربه ومولاه بهذا الاسم، لما يحمله من معانٍ يحتاج إليها بشدةٍ من ينشدُ الاطمئنان وزيادة الإيمان، وكأني به يعبر بندائه ربه بهذا الاسم الكريم عما يلي:

أولا- البوح بما يعتلج في نفسه إلى ربه المطلع، مع بيان شدة حاجته إلى إجابته.

ثانيا- الاعتذار إلى ربه (الذي يتعهده بالتربية)عن طلبه رؤية كيفية إحياء الموتى، لما قد يوحي به من الارتياب وعدم التصديق، وهذا من التأدب المعهود عنه في دعائه وتضرعه.

يقول أبو حيان "وفي افتتاح السؤال بقوله "رَبِّ" حسن استلطاف واستعطاف للسؤال، ولينا سب قوله لنمروذ "رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ"، لأن الرب هو الناظر في حاله، والمصلح لأمره"[١].

وقوله "أَرِنِي" فعل أمر قَصَد به الرجاء والتوسل إلى ربه سبحانه وتعالى، وتعديته إلى ياء المتكلم فيه إشعار بحاجة الداعي الشخصية إلى حصول هذه الرؤية، وفي التعبير بفعل الرؤية دون فعل الإعلام إلماح إلى رغبته في أن تكون الرؤية بالبصر، لإيمانه بقدرة ربه سبحانه وتعالى على تحقيقها، ولينتقل من الدليل العقلي إلى الدليل الحسي، ذلك أن النفوس بالمحسوس آنس.

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٦٤٢.

وجملة "كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى" في موقع المفعول الثاني، وعبر فيها بـ "كَيْفَ" لا للاستفهام، ولكن للرغبة في الوقوف على الحالة أو الطريقة التي يتم بها هذا الأمر المعجز، الذي تشاهد العقول آثاره، ولكنها لما تتطلع على حقيقته وكيفيته، فـ"في معاينة... اجتماع الأجزاء المتلاشية، والأعضاء المتبدّدة، والصور المضمحلة، استعظام باهر قدرته تعالى، والسؤال عن الكيفية يقتضي تيقن ما سأل عنه، وهو الإحياء، وتقرره، والإيمان به، وأنه مما انطوى الضمير على اعتقاده"[1].

و لفظ "الْمَوْتَى" يصور بجرسه المشتمل على حرف المد في آخره مدى السكون والاستسلام والهمود الذي صار إليه حال الميت، والفعل "تُحْيِي" يبرز بجرسه- المشتمل على التاء المضمومة، والحاء الساكنة، والياء المكسورة المكررة- ما تشتمل عليه عمليه الإحياء من تحريك ذلك الساكن وبعثه، حتى تعود إليه الروح فيرجع حيا متحركا، بجانب ما توحي به الضمة في التاء والكسرة في الياء من أن هذه العملية فيها من الخفاء والأسرار ما يدفع النفوس البشرية إلى طلب معرفتها والاطلاع عليها.

والخلاصة:

أن هذا الدعاء بنظمه – المشتمل على نداء الرب، وفعل الأمر المتعدي إلى ضمير الداعي، والمقصود منه التوسل لإطْلاعه على الكيفية – كاشفٌ عن "التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية ... وهو تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلبا للبرهان أو تقوية للإيمان، إنما هو

(1) البحر المحيط ٢/ ٦٤٢.

أمر آخر، له مذاق آخر، إنه أمر الشوق الروحي، إلى ملابسة السر الإلهي، في أثناء وقوعه العملي"[١].

*****

وللعلماء في الغرض من الاستفهام في قوله تعالى "أَوَلَمْ تُؤْمِنْ" عدة أقوال على النحو التالي:

– يرى الزمخشري أنه استفهام قصد به التعليم والإرشاد، حيث يقول: "فإن قلت: كيف قال له "أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ"، وقد علم أنه أثبت الناس إيمانا، قلت: ليجيب بما أجاب به؛ لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين"[٢].

– ويرى أبو حيان أنه استفهام قصد به التقرير بالجملة المنفية، ولذلك كان جوابه عنه بـ "بَلَى"[٣]، وتابعه ابن عاشور، وأضاف أنه "تقرير مجازي، مراد به لفت عقله إلى دفع هواجس الشك"[٤].

– والذي يظهر لي أن الاستفهام هنا قصد به الإيناس والملاطفة من الله تعالى لخليله عليه الصلاة والسلام، كما في قوله تعالى لرسولنا ﷺ "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى"(الضحى ٦– ٨)، بجانب ما فيه من لفت نظره وتنبيهه إلى حقيقة الإيمان الراسخ في قلبه؛ ليدوم عليه ولا يتزعزع عنه، ذلك أن إبراهيم الأواه الحليم لا يتوقع أن يصدر منه ما ينافي ثبات الإيمان ورسوخه، وقد سبق بيان أن سؤاله عن الكيفية يقتضي تيقن ما سأل عنه.

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٠١.

(٢) الكشاف ١/ ٣٠٨ وما بعدها.

(٣) البحر المحيط ٢/ ٦٤٣ وما بعدها.

(٤) التحرير والتنوير ٢/ ٥١١.

ومن ثم كان جوابه "بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي" قاطعا برسوخ إيمانه بقدرة ربه جل وعلا على إحياء الموتى، وتعبيره بالحرف "بَلَى" الموضوع للإجابة عن الاستفهام المنفي، والمختوم بألف المد فيه نوع من التناغم بين المعنى واللفظ، لما يفيده من بلوغ ثقته في ربه، وإيمانه بقدرته على ذلك الأمر مدى لا حدود له.

وجاء بالحرف "لَكِنْ" المفيد للاستدراك، ليقرر ما جاء بعده، من أن الهدف من طلبه ودعائه أن يحصل لقلبه مزيد من الاطمئنان، "واللام في قوله "لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي"، متعلقة بمحذوف بعد "لَكِنْ"، والتقدير: ولكن سألت مشاهدة الكيفية لإحياء الموتى ليطمئن قلبي، فيقتضي تقدير هذا المحذوف تقدير محذوف آخر قبل "لَكِنْ" حتى يصح الاستدراك، فالتقدير: قال: بلى أي آمنت، وما سألت عن غير إيمان، ولكن سألت ليطمئن قلبي"[1].

والاطمئنان في الأصل معناه: السكون، يقول ابن منظور: "الطُّمَأْنِينَةُ: السُّكونُ، واطْمَأَنَّ الرجل اطْمِئنانًا وطُمَأْنينة أَي سَكَن"[2]، والمقصود به في كلام الخليل- عليه السلام- الثبات واليقين، من خلال الانتقال من العلم النظري إلى العلم المشاهد المحسوس، ومن ثم تنكشف له حقيقة هذا الأمر انكشافا لا يحتاج معه إلى معاودة السؤال، كما تندفع به الشُّبه عن العقول والأفهام، لما سبق بيانه من أن النفوس والعقول بالمُشاهد والمحسوس آنس.

والتعبير عن ذلك بالاطمئنان استعارة تصريحية، شبه فيها الثبات الحاصل من مشاهدة كيفية إحياء الموتى بالسكون، بجامع الراحة والهدوء، ثم استعير الثاني للأول على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، التي تبرز حالة القلب قبل حصول تلك المشاهدة، وتوضح مدى احتياجه إلى حصولها، يقول ابن عاشور: "وذلك أن

---

(1) البحر المحيط ٢/ ٦٤٤.

(2) لسان العرب – مادة طمن.

حقيقة يطمئن: يسكن، ومصدره الاطمئنان، واسم المصدر الطمأنينة، فهو حقيقة في سكون الأجسام، وإطلاقه على استقرار العلم في النفس وانتفاء معالجة الاستدلال أصله مجاز بتشبيه التردد وعلاج الاستدلال بالاضطراب والحركة، وشاع ذلك المجاز حتى صار مساويا للحقيقة، يقال اطمئن بالُه، واطمئن قلبُه"[١].

ويمكن أن يكون التعبير من باب المجاز المرسل، الذي عبر فيه بالمسبب (الاطمئنان) عن السبب (الثبات)، وبه يبرز أثر الاطلاع والمشاهدة في إحداث راحة القلب وسكونه، بحيث لا يحتاج إلى إعادة نظر، أو إثارة سؤال في هذا الأمر مرة ثانية.

وأسند الاطمئنان إلى الـ "قَلْبَ" مع أن الأصل أن يكون للعقل أو للفكر، إذ الموضوع هنا فكري بالدرجة الأولى؛ لما للقلب من سيطرة على البدن، وتحكم في جميع أعضائه، لقول النبي ﷺ "...أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ"[٢].

*****

ولما ذكر الخليل لربه- العالمِ بحقيقة أمره- أن اطمئنان القلب لا غير، هو الغرض من دعائه وتضرعه، أرشده سبحانه وتعالى- على الفور- إلى ما يحقق له ذلك، إذ الفاء في قوله جل وعلا " فَخُذْ" تدل- بجانب السببية- على إسراع المولى سبحانه وتعالى في تحقيق طلبه وإجابة تضرعه، تكريمًا له، واهتمامًا بشأنه، يقول البقاعي "قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ

---

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٥١١.

(٢) رواه البخاري / كتاب بدء الوحي - برقم ٥٢، ومسلم / باب أخذ الحلال وترك الشبهات - برقم ٤١٧٨.

جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" بالفاء تحقيقًا لمقاله، وتصديقًا فيما تحقق من إيمانه، وإبداء لاستحقاقه اليقين والطمأنينة بتقرر إيمانه"[1]، وهكذا استجاب الله تعالى دعاء خليله، فرأى هذا السر العجيب يقع بين يديه، ليحدث الاطمئنان الذي ينشده عندما يشاهد بعينيه هذا الأمر العجيب.

وبعد أن تأكدتْ- من خلال المشاهد الثلاثة، التي آخرها مشهد دعاء الخليل- قدرةُ الله تعالى على إحياء الموتى، انتقل النظم الحكيم إلى موضوع آخر "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"(البقرة ٢٦١)، تاركا هذه الأحداث، وتلك الوقائع تعملُ عملها في نفس المتلقي، فيحذر من أن يكون كالنمروذ، ويعمل على الارتقاء إلى مقام إبراهيم، في الإيمان والاطمئنان والتصديق.

*****

(1) التحرير والتنوير ١/ ٥١١.

المطلب الثاني

دعاء الخليل في سورة "إبراهيم"

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ"(إبراهيم ٣٥-٤١).

وهو موضع يأتي في سياق تسجيل القرآن على أهل مكة، الذين أنعم الله تعالى عليهم بسكنى البلد الحرام، وأكرمهم بجوار بيته العتيق، ثم هم يتحولون من الإيمان إلى الكفر، ومن عبادة الواحد الديان إلى عبادة الأصنام، وفيه يُصَوَّر أبوهم إبراهيم- عليه السلام- في مشهد الخاشع المتضرع المبتهل إلى الله تعالى، الراجي منه:

-أن يجعل البلد الحرام آمنا طيلة الدهر.

-أن يُجَنِّبَه وبنيه عبادةَ الأصنام.

-أن يرشد الناسَ إلى عمارة هذا البلد والإقامة فيه.

-أن يجعله وذريته من مقيمي الصلاة، وأن يمُنَّ عليهم جميعا بالمغفرة والفوز في الدنيا والآخرة.

وهذا المشهد يعيد إلى أذهان المخاطبين والقارئين الحالةَ التي كانت عليها تلك البقعة من قفر وجدب، قبل أن يدعو لها إبراهيم- عليه السلام- بهذا الدعاء،

الذي استجابه الله تعالى، وأنعم عليهم بما يرفلون فيه من أمن وخير وكثرة، والغرض منه أن "يُرَد الجاحدون من أبناء الخليل وذريته إلى الاعتراف، والكافرون إلى الشكر، والغافلون إلى الذكر، والشاردون إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها، ويهتدون"[1].

والواو في أوله لعطفه على قوله تعالى "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا" (إبراهيم ٢٨)، فإنهم كما بدلوا نعمة الله كفرا أهملوا الشكر على ما بوأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم- عليه السلام- وبدلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداء بأسلافهم من أهل الضلالة، وبدلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفرًا بمُفيض تلك النعم"[2].

و"إذ" تعود بأهل مكة بخاصة، وبذرية إبراهيم بعامة إلى زمن هذا الابتهال، ليعيشوه ويتصوروه، ويستشعروا من خلاله ما كان يملأ صدر أبيهم إبراهيم من حب لهم، وحرص عليهم، ثم هم يقابلون حرصه بإنكار، ودعاءه لهم بالعزوف عن ملته، والإعراض عن اتباع الرسول السائر على منهجه.

وابتدأ الخليل دعاءه بنداء ربه في قوله "رَبِّ"؛ لما في النداء من معاني الجؤار، والالتجاء، والإعراب عن عظم الحاجة، وإظهار شدة الضعف بين يدي ربه القادر على تحقيق مطالبه، التي سبق بيانها، والتي تبدو في نظره كأنها معجزات، لا قدرة لأحد على تحقيها سواه.

وآثر النداء بـ "رَبِّ" جريا على عادته في كل ابتهالاته؛ ولمناسبة هذا الاسم الجليل لما يدعو به من أمور فيها صلاحه، وصلاح ذريته، وصلاح البلد الحرام، وصلاح أهله وساكنيه، وفي حذفه حرف النداء وإضافة الاسم الجليل إلى ضميره

---

(1) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٠٨- بتصرف.

(2) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٦٠.

إعراب عن شعوره بقرب الله سبحانه وتعالى منه، واطلاعه على ما يغلي به صدره، وتتوق إليه نفسه، وهذا من شأنه أن يوجد عنده نوعا من الثقة الشديدة في إجابة ربه دعاءه، وإسعاده بتحقيق مطالبه، وقضاء حاجاته.

وقوله "اجْعَلْ" فعل أمر، أُسند إلى ضمير المولى سبحانه وتعالى، وغرضه منه التضرع والتوسل إلى من بيده القدرة المطلقة، والإرادة النافذة التي لا يعجزها شيء، ذلك أن تحويل مكة مما هي عليه من خوف إلى بلد آمن يبدو أمرا صعبا، ولا يقدر عليه إلا الله جل في علاه، ومن ثم كان الفعل "اجْعَلْ" المسند إلى ضميره جل شأنه ناطقا أيضا- من خلال جرسه ومعناه الدال على التصيير والتحويل[١]- بثقة الخليل في قدرته تعالى على جعله كذلك.

وعبر عن "مكة" بقوله "الْبَلَدَ" المعرّف بأل التي للعهد، والمسبوق باسم الإشارة "هَذَا" الدالين على تحديد المشار إليه تحديدا دقيقا، وحضوره في الذهن حضورا يغني عن الإشارة إليه باليد- كما سبق بيانه- مما يدل على انشغال إبراهيم- عليه السلام- بهذا المكان انشغالا يملأ نفسه، ويسيطر على كيانه، لإدراكه أن ذريته ستعيش على أرضه، وتغدو فيه وتروح.

يقول صاحب الكشاف: "فإن قلت: أَي فرق بين قوله "اجْعَلْ هذا بَلَدًا آمِنًا"، وبين قوله "اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا"، قلت: قد سأل في الأوّل أَن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمنًا"[٢] يؤيده التعبير عنه بـ "وَادٍ" والذي سيتم بيان ما فيه بعد قليل.

---

(١) ينظر مختار الصحاح – مادة جعل.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٥٧.

وتعريف "الْبَلَدَ" يدل كذلك على أن هذا الدعاء كان بعد الدعاء الذي حكته سورة البقرة، ذلك أن التنكير في الموضع السابق يدل على أن هذا البلد لمّا يكن معروفا، وأن مقومات البلد لمّا تكن متوفرة فيه، أما التعريف هنا فيدل دلالة واضحة على أنه صار بلدا تتوفر فيه كل المقومات، يؤيده الدعاء له بعد طلب الأمن هناك برزق أهله من الثمرات، وغيرها من أسباب الحياة التي تجعله "بلدا" أهلا للاستقرار والإقامة، أما هنا فيلحظ الدعاء له بعد طلب الأمن بتجنيبه وبنيه عبادة الأصنام، مما يدل على أن هذا المكان صار آهلا بالناس، كما توفرت فيه موارد الرزق، التي يصرف الانشغال بها كثيرا من الناس عن عبادة المتكفل بحصولها.

وقوله "آمِنًا" يشير بجرسه- المبدوء بألف المد والمنتهي به- إلى رغبته في أن يصل هذا البلد في الأمن درجةً لا يصل إليه فيها غيره من البلدان، ويدل بما فيه من مجاز عقلي- سبق بيانه- على رغبته في أن تعم نعمة الأمن كل شيء في هذا البلد، سواء في ذلك البشر وغير البشر، ولم يسأل له غير الأمن، لأن ما سواه لا يعد شيئا بدونه، ولأنه إذا حصل تحقق كل شيء تبعا له.

*****

ثم دعا إبراهيم لأبنائه وذريته بقوله "وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ".

وجاء به معطوفا على دعائه لمكة، لأنها المكان الذي سيترك فيه زوجه وولده، كما توضح الآيات، ولأن من سيأتي من نسله سيعيش فيه، ومن ثم فإن العلاقة بينهما واضحة، وفيه دليل على أن إبراهيم- عليه السلام- دعا لسكان هذا البلد بأمنين، أحدهما: الأمن المكاني، والآخر: الأمن العقدي، ذلك "أنه لما

دعا بالأمن من فساد الأموال والأبدان، أتبعه بالدعاء بالأمن من فساد الأديان"[١] وقدّم المكاني لوجوده أولًا، أو لأن حصوله مُعِين على حصول الثاني، ويضيف ابن عاشور "لا جرم سأل أن يكون ذلك بلدا آمنا حتى يسلم ساكنوه، وحتى يأوي إليهم من إذا آوى إليهم لقّنوه أصول التوحيد"[٢].

و"قوله "اجْنُبْنِي" فعل أمر من الثلاثي المجرد، يقال: جنبه الشيء، إذا جعله جانبا عنه، أي باعده عنه، ... وأراد بـ بنيه: أبناء صلبه... أو أراد جميع نسله تعميما في الخير، فاستجيب له في بعضهم، والأصنام: جمع صنم، وهو صورة أو حجارة أو بناء يُتخذ معبودا ويُدعى إلها، وأراد إبراهيم- عليه السلام- مثل وَدّ وسُواع ويَغوث ويَعوق ونَسر، أصنام قوم نوح، ومثل الأصنام التي عبدها قوم إبراهيم"[٣].

ولا يخفى أن غرضه من الأمر بتجنيبه عبادة الأصنام هو التضرع إلى الله تعالى بأن يديم عليه نعمة توحيده وعبادته، وأن يبسط عليه كنفه ورعايته لئلا يزيغ عنها، لما تحقق له بها من عزٍ، ولما وجده فيها من الهداية والحلاوة، وفيه أيضا دعوة إلى الاقتداء بإبراهيم في الخوف وعدم العجب، وطلب حسن الخاتمة.

وعطفُه بنيه على ضميره المنصوب في الفعل مع إضافتهم إلى ضميره "وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ" يوضح مدى حرصه على ذريته، ويبرز مدى انشغاله بهم، وإشفاقه عليهم، وعبر عن المفعول الثاني بالمضارع المسبوق بأنْ "أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ" دون المصدر الصريح، لما يختص به المضارع من إفادة التجدد، الدال هنا على أمله في أن يكون التحصين من عبادة الأصنام حاصلا على مدار

---

(١) نظم الدرر ٤/ ١٩٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٦١.

(٣) السابق.

الزمن، ممتدا مع تتابع الأجيال، وألا تحصل عبادة الأصنام من أحدهم في أي وقت من الأوقات.

وفي حكاية دعائه هذا تعريض بالمشركين، الذين أنعم الله تعالى عليهم بسكنى البلد الذي أمّنه الله تعالى؛ استجابةً لدعوة أبيهم إبراهيم، ثم هم يحيدون عن ملته، فيتحولون من الإيمان إلى الكفر، ومن عبادة الله تعالى إلى عبادة الأحجار، وفيه أيضا دعوة قرآنية لهم كي يعودوا إلى منهجه، ويسيروا على طريقته، بترك عبادة الأصنام، وعبادة الله الواحد الديان.

يقول أبو حيان "ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر التعجيب من الذين بدلوا نعمة الله كفرا، وجعلوا لله أندادا وهم قريش ومن تابعهم من العرب ... وكان من نعم الله عليهم إسكانه إياهم حرمه، أردف ذلك بذكر أصلهم "إبراهيم"، وأنه صلوات الله عليه دعا الله تعالى أن يجعل مكة آمنة، ودعا بأن يجنب بنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكنه وذريته في بيته ليتقربوا إليه وحده بالعبادة التي هي أشرف العبادات، وهي الصلاة، لينظروا في دين أبيهم، وأنه مخالف لما ارتكبوه من عبادة الأصنام"[1].

وقوله "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" بمثابة التعليل لابتهاله بتجنيبه وبنيه عبادة الأصنام، ولذا فصل عنه كما يفصل السبب عن المسبب، فيما يعرف بشبه كمال الاتصال، الذي تتواصل فيه المعاني "من طريق أن الأولى تتولد منها الثانية، وكأنها أصل ينبثق منه فرع"[2] وبه تبدو كل جملة موضوعة وضعا لا تحتاج فيه إلى ما قبلها، آتية

(1) البحر المحيط ٦/ ٤٤٤.

(2) دلالات التراكيب/ ٣٠٩.

مأتى ما ليس قبله كلام[١]، وهى مع هذا الوضع مستقلة موصولة بالتي قبلها من حيث المعنى وصلا قويا، لا تحتاج معه إلى رابط[٢]، هذا بجانب ما له من تأثير شديد في تحريك نفوس السامعين، وإثارة أذهانهم إلى فهم مقاصد الكلام وإدراك مراميه، التي يسعى النظم الحكيم إلى الحث عليها أو ترسيخها، كما أنه يبرهن على قوة الأسلوب وتناسق عباراته.

وفيه أعاد نداء المولى سبحانه وتعالى بقوله "رَبِّ"- مع قرب العهد به- استعطافا لربه، وإظهارا للاهتمام بطلبه، وجاء بجملة "إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ" ليكشف بها سبب طلبه، وفيها أسند فعل الإضلال إلى ضمير الأصنام مؤكدا بـ "إنّ" على سبيل المجاز المرسل، لعلاقة السببية، والمعنى: كنّ سببا لإضلال كثير من الناس.

أو على سبيل الاستعارة المكنية التي تخلع على تلك الأصنام نوعا من الحياة، وتجعلها تبدو في صورة شيءٍ حيّ، يبهر الناس، ويجذبهم إليه، ويصرفهم عن عبادة ربهم إلى عبادته، يعضد ذلك ويقويه تأنيث الضمير العائد إلى الأصنام بعد "إنَّ" "إِنَّهُنَّ"، وتأنيث الضمير المسند إليه فعل الإضلال "أَضْلَلْنَ".

وأرى أن الاستعارة المكنية أكثر اتساقا مع ما يقصد إليه السياق من إبراز شفقة إبراهيم، وحرصه على ذريته، فكأني به يلتمس- من خلالها- العذرَ لضعفهم أمام المغريات والضغوطات التي جعلتهم يضعفون أمام الأصنام ولا يقاومون عبادتها، يقويه التعبير عن المفعول بقوله "كَثِيرًا" مع تعليقه بلفظ "النَّاسِ"؛ الدالين على أن الافتتان بالأصنام ليس مقصورا عليهم، بل سبقهم إليه

---

(١) دلائل الإعجاز/ ٢٣٦ بتصرف.

(٢) دلالات التراكيب/ ٣٠٩.

كثير من ذوي القدر والمنزلة، الذين لا يتوقع حصوله منهم، يقول الراغب: "و"النَّاسِ" قد يذكر ويراد به: الفضلاء، دون من يتناوله اسم الناس، تجوّزا"[1].

أما قوله "فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" فله من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا- تصديرُه بالفاء التي تفيد التسبب، فيه إلماح إلى أن ما يطلبه من ثواب للموحدين، ومغفرة ورحمة للعاصين مُسبَّبٌ عن ضعفهم، وفتنة الأصنام لهم.

ثانيا- تكوُّنه من جملتين تعتمد كل واحدة منهما على أسلوب الشرط، الذي يزيد المعنى بيانا وإيضاحا، ويزيد من تطلع القارئ وإثارته إلى معرفة ما يترتب على كل حالة من الحالتين، وذلك لاعتماده على جملتين **إحداهما**: للفعل، **والأخرى**: للجزاء، في أسلوب تقابلي، قُدّم فيه المتبعون على العصاة؛ لدفع المخاطبين من ذرية إبراهيم إلى أن يكونوا من أتباعه، وألا يحيدوا عن ملته.

ثالثا- تعديةُ فعل الاتّباع، وفعلِ العصيان إلى ضمير إبراهيم عليه السلام "تَبِعَنِي– عَصَانِي" فيه إثارة لمن يسمع دعاءه من ذريته إلى بِره، وتنفيذ وصيته، وإجابة دعوته، لما يُبرزه من أن الاتباع فيه ارتباط بالجَدِّ، واتصال بالأصل، وأن العصيان فيه نوع من العقوق له، وإعلانٌ للانفصال عنه، وعدم الارتباط به، وهو (أي العصيان) فكرة تبدو مزدراةً مرفوضة، بعد كل ما أظهره النظم الحكيم من حرص الخليل وشفقته وانشغاله بذريته.

رابعا- اختلافُ جواب الشرط في الجملتين تبعا لاختلاف الفعل مؤذنٌ بمدح النوع الأول، وذم النوع الثاني وعدم الرضا عن فعله، فقوله في جواب الجملة الأولى

([1]) المفردات– مادة نوس .. ونحن بحاجة إلى دراسة بلاغية تقف مع مواضع تعبير القرآن بـ"الناس"، ومواضع تعبيره بالمصطلحات ذات الصلة مثل: البشر، والخلق، لتكشف عن الأسرار التي يقصد إليها القرآن عند التعبير بأي منها.

"فَإِنَّهُ مِنِّي"، والذي أعيد فيه الضمير العائد على إبراهيم مجرورا بـ "مِن" التي تفيد التبعيض فيه إشارة إلى أن من يتبع إبراهيم، ويسير على ملته في تجنب عبادة الأصنام، وما يشابهها من ألوان الشرك بالله تعالى يتصلُ به اتصال الجزء بالكل، وينبثق عنه انبثاق الفرع عن الأصل، بجانب دلالته على أنه سيحصل على الثواب الذي سيثاب به إبراهيم عليه السلام.

وقوله "فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" في جواب الجملة الثانية دليل على أن عصيان الخليل- بعبادة الأصنام أو غيرها- ذنب عظيم، يحتاج إلى الابتهال إلى الله تعالى بطلب المغفرة والرحمة لمن اقترفه، وفيه إلماح إلى أن أمره مفوض إلى الله تعالى، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، إذ المعنى: "ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك"[١].

خامسا- قوله "فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" يعد- بجانب ما سبق- دليلا على غلبة الحلم على إبراهيم- عليه السلام- وخشيته من استئصال عصاة ذريته، حيث بدأه بالفاء التي تفيد التسبب، وأكده بإنّ، وجاء بوصفي المغفرة والرحمة على صيغتي المبالغة، مع تقديم المغفرة وتأخير الرحمة لكون الثانية مترتبة على الأولى، وأسندهما إلى ضمير ربه عزوجل بصيغة الخطاب؛ للإلماح إلى يقينه في اتصاف ربه سبحانه وتعالى بواسع المغفرة وواسع الرحمة، المقتضيتين الإمهال، وعدم الاستئصال.

وفيه كذلك تعريض بالمشركين من العرب بأنهم لم يبروا أباهم إبراهيم عليه السلام، ولم يتبعوا ملته، وعاندوا الرسول السائر على منهجه، وفي الوقت ذاته تهديدٌ لهم بتعرضهم للاستئصال إن هم استمروا على ذلك.

*****

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٦٢.

ثم يمضي إبراهيم- عليه السلام- في دعائه فيذكر إسكانه بعض أبنائه بذلك الوادي المُجدب المُقفر المُجاور للبيت المُحرم، ويذكر الوظيفة التي أسكنهم فيه من أجلها "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ".

وفي إعادة نداء "الرَّب" سبحانه وتعالى في صدر هذا الابتهال، وعدم الاكتفاء بذكره سابقا ما يشعر بشدة إشفاقه وخوفه على أهله مِن تركِهم في ذلك المكان الموحش، كما أنه يكشف عن عجزه وعجز ذريته وعجز البشرية كلها عن تحويل هذا الوادي إلى النقيض مما هو عليه، مما يجعل النداء هنا مُشِعًّا بالاستعطافِ، وإظهارِ التذلل، وشدةِ الاهتمام بما جاء بعده، ورغبتِه القوية في إجابته وتحقيقه.

وأضاف الاسم الجليل إلى ضمير الجمع "رَبَّنا" خلافا لما دعا به فيما سبق من هذا المشهد، لأن الدعاء هنا يشمله، ويشمل من ترك من ذريته في الوادي الذي يتحدث عنه، والمراد بهم: اسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام، كما ورد في صحيح البخاري[1].

وقوله "إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ" بمثابة التمهيد والتوطئة لدعائه بإعمار المكان الذي ترك فيه زوجه وولده، وفيه من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا- ذِكر الضمير العائد إلى الخليل ثلاث مرات، أولاها: في "إِنِّي"، والثانية: في "أَسْكَنْتُ"، والأخرى: في "ذُرِّيَّتِي" يشع بالتوسل، والرجاء، وطلب الإشفاق لما يعتريه من مشاعر بشرية، لا يختلف فيها عن غيره من الآباء والأزواج، يؤازر

(1) ينظر صحيح البخاري- كتاب بدء الوحي- برقم ٣٣٦٤.

ذلك ياء المتكلم في "إِنّي"، و "ذُرِّيَّتِي" برسمها الملمح إلى مدى الانكسار الذي يعتريه وهو يدعو ربه ومولاه.

ثانيا- أوثر التعبير بالفعل "أَسْكَنْتُ" دون "تركت" أو غيره؛ لما فيه من التناغم بين المعني والجرس، ذلك أن سكون فائه ولامه- وهما السين والنون- يومئ إلى عزمه استقرار ذريته في ذلك المكان، وعدم الرحيل عنه، يقول الراغب "السُّكُونُ: ثبوت الشيء بعد تحرّك، ويستعمل في الاستيطان، نحو: سَكَنَ فلان مكان كذا، أي: استوطنه"[١]، يقويه تعدية الفعل إلى الوادي بالباء الدالة على الإلصاق، كما أن اشتماله على حرف السين، الذي يتسم بالهمس، يفهم منه الإشارة إلى ضعف مَن ترك مِن ذريته، وشدة احتياجهم إلى الرعاية والمعاونة.

ثالثا- عبّر عن مكة بـ "وَادٍ" نكرةً للإلماح إلى كونه مجهولا غير معروف، إذ ليس فيه أحد غير زوجه وولده، ووصفه بقوله "غَيْرِ ذِي زَرْعٍ" للإشارة إلى خلوه من الماء والزرع، اللذين يُعتمد عليهما في السكن والمعيشة، كما وصفه بقوله "عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ" زيادة في الاستعطاف والإثارة إلى إجابة دعائه، وتحقيق مطلبه، بجعل مكة بلدا آمنا، وتوجيه الناس إلى الاستقرار فيه وعدم الرحيل عنه، فيحصل بذلك أمران:-

أحدهما- إعمار بيت الله الحرام، وتحقيق كونه مثابة للناس وأمنا.

والآخر- إيناس من ترك من ذريته عنده، وتأمينهم فيه، لما لهذا البيت من حرمٍ لا يؤذى فيه أحد.

والتعبير بجملته يرسم للمخاطبين والقارئين صورة هذا الوادي عند دعاء إبراهيم- عليه السلام- لتتم مقارنتها بالصورة التي هو عليها عند نزول الآيات،

---

(١) المفردات – مادة سكن.

وعند تلاوتها في أي وقت، فيحصل المقصود باتباع ملته في توحيد الله تعالى، والتخلي عن عبادة الأصنام، والاجتهاد في حفظ النعم التي مَنّ اللهُ تعالى بها على مجاوري هذا البيت، وسكان البلد الحرام.

وقوله "رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ"، يبين الغرض الذي أسكنهم في هذا المكان المقفر المجدب من أجله، وفيه من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا- علق قوله "لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ" بالفعل "أَسْكَنْتُ"؛ لبيان أن غرضه من إسكانهم في هذا المكان- مع ما فيه من جدب ووحشة- أن يعمروا بيت الله الحرام بإقامة الصلاة فيه، والتعبيرُ بالمضارع إشارة إلى أنها إقامة متجددة، لا انقطاع فيها، ولا فُتُورَعنها، واقتصر على الصلاة لمزيد فضلها، ولأن من أقامها وداوم عليها كان على غيرها من العبادات والشعائر أدوم.

ثانيا- كرر النداء بـ "رَبَّنَا" وجاء به متوسطا بين الفعل ومتعلقه، لما فيه من معاني الجؤار، والالتجاء، وإظهار التذلل، والرغبة في الإجابة، وغير ذلك مما يسيطر على من ترك أحدا من ذريته في مكان بالصفة التي ذكرها، وأتى بضمير جماعة المتكلمين؛ لأنه يدعو بالأصالة عن نفسه، وبالنيابة عمّن ترك من ذريته.

ثالثا- جاء بقوله "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ" مبدوءا بالفاء التي تفيد التسبب، للإشارة إلى أن ما يطلبه من أنس وطعام لذريته مسبب عن إسكانهم بواد مقفر مجدب، والأمر"اجْعَلْ" فيه غرضُه التوسل والرجاء، وفي تعديته إلى "أَفْئِدَةً" بمعنى: قلوب، إشارة إلى رغبته في أن يكون مسير الناس إليهم، وإسراعهم نحوهم، واجتماعهم عند البيت الحرام معهم عن شوق ومحبة، لا عن شيء آخر، ومن ثم يحصل بجانب الأنس السلامةُ مما يحصل بين المجتمعين أجسادا المفترقين قلوبا، وتلك لفتة حانية من إبراهيم

الحليم، يقويها وصف "أَفْئِدَةً" بقوله "مِنَ النَّاسِ" مستعملا حرف الجر "مِنَ" الدال على التبعيض، بما فيه من إشارة إلى ضراعته باختيار من يأتي إليهم وانتقائه.

ويمكن أن تكون "مِنْ" بيانة لا تبعيضية، والمعنى: "فاجعل أناسا يقصدونهم بحبات قلوبهم، وكأن القلوب هي التي تسير إليهم، وترغب في الاتجاه نحوهم"(١)، يقويه التعبير بالفعل "تَهْوِي"، الدال على السرعة، والمسند إلى ضمير الأفئدة على سبيل الاستعارة المكنية، التي تجعل من القلوب كائنا حيا، يبصر ويعقل، ويميل إلى ذلك المكان، ويهفو إليه، ويسرع نحوه، ويألف من فيه، "أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ" يقول: خذ بقلوب الناس إليهم، فإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسد، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه معلق بحب الكعبة"(٢).

وللحرف "مِنْ" في هذا التعبير موضع حسن، ذلك أن حذفه يترتب عليه أن يزاحمهم عند البيت الحرام كلُّ الناس، ومن ثم يكدُر عيشُهم فيه، "قال مجاهد: لو قيل: أَفئدة الناس، لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل "مِنْ" لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند"(٣).

ولما كان الطعام من متطلبات استمرار الاجتماع وعدم الانفضاض جاء بقوله "وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ"، معبرا فيه بفعل الأمر، مع تعديته إلى ضمير الجمع "ارْزُقْهُمْ" ليشمل رجاؤه كل من تركهم في هذا المكان، وكل من يسكنه، أو يأتي إليه، كما جاء بالمفعول الثاني "الثَّمَرَاتِ" جمعا مجرورا بـ "مِنْ" رغبة في أن تزخر هذه البقعة، وينعم ساكنوها بكل أنواع الثمار، وألا يحرموا من

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٦٣- بتصرف.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٨/ ٥٥٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٥٩.

شيء يتواجد أو يزرع في غيرها، "وفي هذا الدعاء فائدتان، إحداهما: ميل الناس إلى تلك البلدة للنسك والطاعة، والأخرى: اتساع معايشهم وكثرة أرزاقهم"[١].

يقول أبو حيان: "ولا جرم فقد أجاب الله تعالى دعوة إبراهيم، فجعله حرما آمنا، يُجبى إليه ثمرات كل شيء ... ثم فضّله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب لا ترى الأعجوبة التي يريكها الله بواد غير ذي زرع، وهي: اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب"[٢].

وقوله "لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ" تعليل لما طلبه من الإيناس وسعة الرزق، وفي داخله دعاء لهم، حيث جاء فيه بحرف الرجاء والفعل المضارع، أملا في أن يكون الإنعام عليهم سببا في جعلهم من ذوي الشكر المتجدد مع كل نعمة يخصون بها، وكل ثمرة يرزقونها.

وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام .. وأنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله، ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويّها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض .. إنه شكر الله المنعم الوهاب، وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة في موقف قريش جيرة البيت المحرم .. فلا صلاة قائمة لله، ولا شكر بعد استجابة الدعاء، وهويّ القلوب والثمرات! [٣].

*****

(١) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤/ ٢٠٠.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٤٤٨.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٠.

ثم أتبع إبراهيم تلك الأدعية بقوله "رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ"؛ ليقوّي به ما سبق من المطالب والابتهالات، من خلال ما فيه من الخصائص التعبيرية التالية:

أولا: تصديره بنداء المولى سبحانه وتعالى بعنوان الربوبية "رَبَّنَا"، للإشارة إلى عظيم استعطافه، وشدة إيمانه بعلم الله تعالى به، واطلاعه على كل ما يدور في داخله، ويعتمل في نفسه، لما في هذا الاسم من معني الخلق والإيجاد المستلزم العلم بما يحتاجه المخلوق، ومعنى التربية المستلزم العلم بما يصلح المُربَّى، وما له تأثير في مسيرته.

ثانيا: تعبيره عن إحاطة الله تعالى بكل ما في قلبه من رغبات، وجميع ما تتمناه نفسه من حاجات، بالمضارع "تَعْلَمُ" الذي يفيد يقينه بتجدد علم الله تعالى بما يتجدد عند عباده من إخفاء أو إعلان، وتقوية ذلك من خلال تأكيده بـ "إنّ" والجملة الاسمية.

ثالثا: الطباق بين الفعلين "نُخْفِي" و "نُعْلِنُ"، مع مجيء كل واحد منهما صلة لاسم الموصول "مَا" الدال بجرسه ومعناه على اتساع علم الله تعالى وإحاطته بكل المخفي مهما كان عميقا، وجميع المعلن مهما كان.

ولا يخفى ما في تقديم فعل الإخفاء في هذا السياق من إلماح إلى اطلاع الله تعالى على نيته، وعلمه بالبواعث التي تقف وراء إلحاحه من أجل إجابة دعوته، يقول الشوكاني "ما نكتمه وما نظهره، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليه سبحانه سيّان، قيل: والمراد هنا بـ "مَا نُخْفِي" ما يقابل "مَا نُعْلِن"، فالمعنى: ما نظهره وما لا نظهره، وقدّم "مَا نُخْفِي" على "مَا نُعْلِنُ"، للدلالة على أنهما مستويان في علم الله سبحانه.

وظاهر النظم القرآني عموم كل ما لا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشيء معين من ذلك...والمجيء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط، بل أراد جميع العباد، فكأن المعنى: أن الله سبحانه يعلم كل ما يظهره العباد، وكل ما لا يظهرونه"[1].

رابعا: المجيء بقوله "وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ"، بما فيه من التعبير بالمضارع منفيا بـ"ما" مع إدخال "مِن" المفيدة للتأكيد[2]على الفاعل"شَيء"، وتعليقه بـ"الأرض" معطوفا عليها "السماء" مع إعادة حرف الجر مسبوقا بحرف النفي المختوم بألف الإطلاق "وَلَا"، لإفادة العموم والشمول، واقتصر على ذكر "الأرض والسماء" لأنهما المشاهدتان للعباد، وإلّا فإن علم الله سبحانه وتعالى محيط بجميع ما هو داخل في العالم، وجميع ما هو خارج عنه، لا تخفى عليه منه خافية، وقدم "الْأَرْض" لاعتبار قربها من المخلوقين، ولأنهم أكثر اطلاعا عليها، وربما يظنون أنهم أعلم بما فيها.

والجملة من باب ذكر العام بعد الخاص، جاء بها إبراهيم[3] ليكون اعترافه باطلاع ربه عليه، وعلى البواعث التي تدفعه إلى الإلحاح في تضرعه، والتذلل في مناجاته حاصلا مرتين، إحداهما على وجه الخصوص في قوله "رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ"، والأخرى على وجه العموم في الجملة التي بين أيدينا، ولا يخفى ما في ذكر العام بعد الخاص من تأكيد معنى العام، وتنبيه إليه، واعتراف به،

---

(1) فتح القدير ٤/ ١٥٤.

(2) يراجع الجنى الداني ١/ ٥١.

(3) بين العلماء خلاف في هذه الجملة: "إذ يرى جمهور المفسرين أنها من كلام الله سبحانه تصديقًا لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه، وقيل: يحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم؛ تحقيقاً لقوله الأوّل، وتعميما بعد التخصيص" وهو ما أميل إليه؛ لما تم بيانه.. يراجع فتح القدير ٤/ ١٥٤ وما بعدها.

بجانب ما فيه أيضا هنا من رعاية لمقام العبودية، الذي هو فيه، وتقدير لمقام الألوهية، الذي يخاطب به الله سبحانه وتعالى.

يقويه ما فيه من انتقال التعبيرعن المولى سبحانه وتعالى بضمير الخطاب إلى التعبير عنه عزوجل بالاسم الأعظم الجامع لكل الصفات "الله" على سبيل الالتفات، تربية للمهابة والتعظيم، وإشعارا بعلة الحُكمِ، وإيذانا بعمومه؛ لأنه ليس شأنا خاصا بإبراهيم وذريته، بل هو شامل لكل الشؤون، فناسب ذكر الله عزوجل بالاسم العلم.

*****

ثم ذكر إبراهيم جانبا من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليه، ليكون ذلك سبيلا إلى شكر الله سبحانه عليها، فقال: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ".

وبدأ بالشكر مستعملا أسلوب القصر الذي يفيد تأكيد المعنى بطريقين: أحدهما: إثبات المعني للمقصور عليه، والآخر: نفيه عما سواه تحقيقا أو إضافة، فقال "الْحَمْدُ لِلَّهِ" معبرا عن المولى سبحانه وتعالى باسم الجلالة العلم، الجامع لصفات الألوهية والربوبية، وجاء باسم الموصول "الَّذِي" ليتسنى له- من خلال جملة الصلة- ذكر النعم التي أنعم بها عليه، ثم قال "وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ" مستعملا الفعل "وَهَبَ" للإشارة إلى أن ذلك كان فضلا من الله تعالى وتكرما منه عليه، إذ الهبة هي: العَطِيَّة الخاليةُ عن الأَعْواضِ والأَغْراضِ[١]، وجاء بوصف "الْكِبَرِ" مجرورا بالحرف المفيد للاستعلاء للإلماح إلى تمكنه منه، مما يدل على أن مجيء الذرية في ذلك السن أمر من الصعوبة بمكان، و أن حصوله بعد حرمان أمر موجب لشكر من تفضل بهبته مع عدم وجود الأسباب.

---

(١) لسان العرب – مادة وهب.

وذِكْرُه "إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ" إشارة إلى عظيم فضل الله عليه، حيث أنعم عليه بولدين، وليس بولد واحد كما كان يأمل ويرجو، مما يدل على اعترافه بفضله، وامتنانه لعظيم عطائه.

وقوله "إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ" تمهيد لما يأتي بعده من دعاء وتضرع، وهو في الوقت نفسه تذييل لجملة الحمد، حيث إنه يؤكد استحقاقه سبحانه وتعالى الحمد والشكر من عباده بعامة، ومن إبراهيم بخاصة، لما يتفضل به عليهم من إجابة أدعيتهم، وتحقيق مطالبهم.

وفيه عبر بقوله "سَمِيعُ الدُّعَاءِ" بصيغة المبالغة، للإلماح إلى أن طول الأمد وعدم الإجابة الفورية للداعين لا يعني عدم سماعه سبحانه وتعالى أدعيتهم، أو نسيانه- حاشاه- مطالبهم، ولكنه نوع من الترتيب والتخيُّر لهم، إذ ينعم عليهم بإجابة دعائهم في وقت يكونون أحوج فيه إلى ما دعوا به، وقتٍ يكون فرحهم به أضعاف ما لو أجابهم قبله، يقويه تأكيد الكلام بإن واللام والجملة الاسمية، مما يدل على أن سماع الدعاء سنتُه المستمرة التي لا تنقطع ولا تتوقف.

كما عبر الخليل عن "الله" تعالى بعنوان الربوبية مضافا إلى ضميره، وليس إلى ضمير الجمع "رَبِّي" لكون الدعاء بحصول الولد والذرية شأنا خاصا، كان قد اتجه به إلى ربه ومولاه، فيما يحكيه القرآن من دعائه "وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ" (الصافات ٩٩-١٠٠)، وفيه دلالة على إقراره بفضل ربه عليه، وعظيم هبته له.

وفي إيراد شكر الخليل نِعْمَةَ ربه توجيهٌ للمخاطبين من ذريته إلى أن يقتدوا به في الإقرار بنعم الله، والقيام بشكره تعالى عليها، باتباع منهجه، والإيمان بالرسول الداعي إلى توحيده، والإخلاص في عبادته، والتضرع والتوسل إليه سبحانه في كل ما يحتاجونه، ويأتي على رأسه ما ابتهل به أبوهم إبراهيم من التوفيق إلى إقامة الصلاة، وطلب المغفرة له ولجميع المؤمنين.

*****

ثم ختم إبراهيم عليه السلام هذا المشهد بالأدعية التي يجب أن تكون على رأس ابتهالات المبتهلين، وأولَ ضراعات المتضرعين، والتي يحكيها القرآن في قوله تعالى: "رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ"، وفيها من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا- تكراره نداء المولى سبحانه وتعالى بعنوان الربوبية قبل كل دعاء منها، لما في التكرار من إظهار زيادة الضراعة، وإبراز شدة الالتجاء، وبيان أهمية كل مطلب.

ثانيا- البدء بطلب الديمومة على إقامة الصلاة "اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ"، والتثنية بطلب تقبل الدعاء "رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ"، والانتهاء بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين، ولعل تقديم الابتهال بالتوفيق إلى المداومة على إقامة الصلاة على غيره من باب تقديم السبب على المسبب، أو من باب تقديم طلب التوفيق في العمل على طلب الأجر والجزاء، وفيه من الأدب ما لا يخفى، ولعل اقتصاره على هذه المطالب الثلاثة في ختام هذا المشهد راجع إلى كونها سبب السعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة، وإلى كونها الثمرة المرجوة والمقصد الرئيس من دعائه.

ثالثا- إبراز انشغال إبراهيم بذريته- كما هو شأنه دائما- ففي طلبه الأول قال "وَمِنْ ذُرِّيَّتِي"، وفي طلبه الثاني قال "رَبَّنَا" بإضافة الاسم الجليل إلى ضمير الجماعة، وفي طلبه الأخير قال "وَلِلْمُؤْمِنِينَ"، مما يدل على المحبة والانشغال، ويدعو المخاطبين من الذرية إلى رد ذلك الجميل من أبيهم إبراهيم بما يجب أن يكون.

وبعد هذا البيان:

يتضح أن قصد النظم الحكيم إلى تنبيه أهل مكة وحثِّهم على شكر نعم الله تعالى عليهم كان وراء حكايته ضراعة الخليل بما سبق بيان أسراره.

كما يتبين أن استعظام إبراهيم لما يطلبه، ورغبته الصادقة في تحويل مكة مما كانت عليه إلى ما صارت إليه عند نزول الوحي على رسول الله ﷺ كانا وراء تعبيره بما يلي:

-نداء المولى سبحانه وتعالى بوصف الربوبية، والذي تكرر في هذا المشهد سبع مرات.

-الأمر المقصود منه التضرع، والذي تنوع وشمل كذلك سبعة مطالب.

-التعليل للأمر بجمل تؤكد مدى الحاجة إلى إجابة هذه المطالب.

-التذييل المقرر قدرة الله تعالى على تحقيقها.

-الطباق الدال على إحاطة الله تعالى واطّلاعه على كل ما يحتاجه الخليل مما ذكره في دعائه، ومما لم يذكره.

وكلها أساليب بلاغية تعانقت في بيان مقاصد الخليل، مع الإعراب عن ثقته في تحقيق الله تعالى لها.

*****

وقد أتْبع النظم الحكيم هذا المشهدَ الضارعَ بالحديث عن الظالمين وإمهال الله تعالى لهم، مع بيان قدرته عزوجل عليهم "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ"(إبراهيم ٤٢)، ثم بيان ما آل إليه حالُهم بسبب عدم اتباع الرسل "وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ"(إبراهيم ٤٤)، ليكون

هذا الحديث ثناءً على إبراهيم وعلى المتبعين لملته، وتهديدا للظالمين، الذين ينكرون الجميل الذي أسداه إليهم، والمعروف الذي خصهم به.

وفيه من الترهيب المفضي إلى الترغيب ما لا يخفى، ذلك أن عرض هذين المشهدين في قرن واحد مما يعمل عمله في نفوس المتلقين، فيدفعها إلى الرغبة في الحسن بفعله والرهبة من القبيح بتركه.

وذلك هو شأن المقابلة التي هي فن عرض الأشياء المتناقضة في صورة تجذب المتلقي إليها، وتدفعه إلى التفكير المفضي إلى التمييز بينها، مما يترتب عليه الاقتناع بامتثال الحق والعزوف عن الباطل.

*****

المطلب الثالث

دعاء الخليل في سورة "الشعراء"

"رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"(الشعراء ٨٣-٨٩).

وهو دعاء يأتي في سياق حديث السورة عن الجهود التي بذلها إبراهيم- عليه السلام- في سبيل القيام لرسالته، من خلال بيان الطريقة التي تحاوَرَ بها مع قومه، والبراهين التي أثبت بها عدم استحقاق آلهتهم المزعومة للعبادة، ودعوته إياهم إلى عبادة الله وحده، لما يُنعم عليهم من نعم، وما يغمرهم به من خيرات، "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" (الشعراء ٦٩-٨٢).

ويلفت النظر في بداية حديث السورة عن خبر إبراهيم الأمرُ القرآني "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ"، والمقصود به توجيه الرسول ﷺ إلى ضرورة المداومة على ذِكْرِ ما قد يؤثر في نفوس المدعوين، من خلال حكاية قصة إبراهيم مع أبيه وقومه، وبيان ما كان فيها من مفاصلات، وابتلاءات، وأدعية وضراعات، عل ذلك يهديهم إلى الصواب، حيث إنهم لا يفتأون يكررون ارتباطهم بإبراهيم، وانتسابهم إليه، يقول أبو حيان "لما كانت العرب لها خصوصية بإبراهيم عليه السلام، أمر

الله نبيه ﷺ أن يتلو عليهم قصصه، وما جرى له مع قومه، ولم يأت في قصة من قصص هذه السورة أمره ﷺ بتلاوة قصة إلا في هذه"[١].

ومما يجب التوقف عنده بالإشارة قبل بيان السمات البلاغية لدعاء إبراهيم في هذا الموضع، أسلوبُه الدعوي الهادئ المتدرج، والمعتمد على الاستفهام، الذي يحرك العقل، ويُفَتِّحُ مداركَ المتلقين، ويدفعهم إلى التفكر والتدبر قبل الإجابة عما يُسألون عنه "مَا تَعْبُدُونَ"؟، "هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ"؟ "أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ"؟، والذي أفضى به إلى الحديث عن الله ﷻ حديثا يفيض بالمهابة والجلال، وفي الوقت نفسه يدفع السامع إلى المقارنة بين ما يعبده من أصنام لا تنفعُ ولا تَضُرُّ، وبين رب العالمين الذي يعبده إبراهيمُ، فلا يملك- إن كان لديه ذرةٌ من عقلٍ- إلا أن يستجيب لنداء الخليل، بعبادة الله الجليل "فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ".

أما دعاء الخليل في هذا الموضع فله من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا- أنه شرع في الابتهال والتضرع بعد أن فرغ من الثناء على ربه، والاعتراف بنعمه، جريا على سنن الصالحين، في تقديم الثناء على رب العالمين، ليكون ذلك أدعى إلى إجابة مطالبهم، وتحقيق أغراضهم، وفي هذا توجيه إلى أن تقديم الثناء على السؤال من الأمور المهمة، وله في الإجابة أثر كبير.

ثانيا- أنه عبر في صدر دعائه بنداء ربه من غير حرف، مع إضافة الاسم الجليل إلى ضميره، المحذوف تخفيفا "رَبِّ"، جريا على عادته في بداية كل دعاء،

(١) البحر المحيط ٨/ ١٦٢.

وللإشارة إلى القرب الشديد، والإحساس بإحاطة الله تعالى به، ومعرفته بأحواله، وإدراكه لمتطلباته، المذكورة وغير المذكورة، كما سبق بيانه.

ثالثا- أنه ركز فيه على مطالبَ خاصةٍ، ومقاصدَ مغايرةٍ لما كان يدعو به دائما لأبنائه وأتباعه وذريته، وأراه قد فعل ذلك لأن دعاءه هذا يأتي في سياق دعوة قومه المُصرّين على عبادة الأصنام، على الرغم مما واجههم به في حقيقتها، مما يجعل في دعائه لنفسه دونهم ضربا من إثارتهم إلى اتّباعه والإيمان برسالته، الداعية إلى عبادة الله القادرِ على النفع والضر في الدنيا، وبيده الثواب والعقاب، والنعيم والعذاب في الآخرة، عل ذلك يدفعهم إلى ترك ما هم عليه، والإيمان بما جاءهم به، فتتحقق لهم المصلحة في الدارين.

رابعا- أن دعاءه هنا كان أكثره أخرويا، لأنه يريد أن يَرْسَخَ في عقيدة قومه أن هناك بعثا وحسابا وثوابا وعقابا، وأنه نفسه غير آمن فيه، بل إنه يتوسل إلى ربه أن يمن عليه بعدم الخزي، والفوز بجنة الخلد في الآخرة، وقصدُه حصول الخوفِ والإثارةِ الدافعين إلى الإيمان، وترك الشرك بالله تعالى.

خامسا أن هذا الدعاء في أغلبه معتمد على التعريض المفضي إلى الحث على اتباع ملته، والإيمان بما جاء به، مما يجعله من الأساليب الدعوية التي تترك أثرها في نفوس المدعوين؛ لأنه مبني على التوجيه غير المباشر، والتذكير غير الصريح، والتلميح بما هم فيه من تقصير وتفريط، من غير مواجهة أو استفزاز.

وبين العلماء خلاف حول المراد بـ "الحُكْم" في قوله "رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا"، "فقيل: الحكمة والنبوة ... وقيل: لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة لأنها حاصلة ... والمراد به: ما هو كمال النبوة العملية، وذلك بأن يكون عالما بالخير لأجل العمل به، وقيل: دعاؤه عليه السلام في مثل هذا هو في التثبيت والدوام"[1]، وقيل: المراد

([1]) البحر المحيط ٨/ ١٦٧ (بتصرف).

بالأول ما يتعلق بالمعاش وبالثاني ما يتعلق بالمعاد، وقيل: المراد بالحكم رياسة الخلق وبالإلحاق بالصالحين التوفيق للعدل فيما بينهم مع القيام بحقوقه تعالى[١].

والذي أراه متفقا مع السياق هنا، هو القول بأن الحُكم هو: العلم الذي يمنحه القدرة على التفريق بين الحق والباطل، العلم الذي يترتب عليه امتثال الحق والعمل به، يقول ابن فارس "الحاء والكاف والميم أصلٌ واحد، وهو المنْع ... والحِكمة هذا قياسُها، لأنها تمنع من الجهل"[٢]، ذلك أن مخاطَبيه يعرفون صدقه، وقوة حجته، ومع ذلك لا يؤمنون بما جاءهم به، بل ويناصبونه العداء، ومن ثم فإن في طلب الـ "حُكْم" بمعناه السابق ضربا من التعريض بهم، والازدراء لأفعالهم؛ لأنهم يعرفون الحق، ولا يؤمنون به.

والمراد بقوله "وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ" التوفيق إلى العمل الذي يجعله فيهم، وجاء به متأخرا عما قبله، لأن معرفة الفرق بين الحق والباطل أصل الأمر ورأسه، والتوفيق إليه يساعد في التوفيق إلى العمل الصالح، "قال أبو عبد الله الرازي: وإنما قدّم قوله "هَبْ لِي حُكْماً" على قوله "وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ" لأن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية، حيث يمكنه أن يعلم الحق، وإن لم يعمل به، وعكسه غير ممكن، ولأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن، وما يتصل بالروح مقدم على ما يتصل بالبدن... وذكره بعد ذلك تخصيص بعد تعميم؛ اعتناءً بالعمل، من حيث إنه النتيجة والثمرة للعلم"[٣]، ومن ثم فإن قصده من التضرع بهذا الدعاء وسابقه- بجانب ما سبق ذكره- دعوةُ قومه إلى أن يعلموا الحق ويعملوا به، لا أن يكتفوا بالعلم دون العمل.

---

(١) روح المعاني ١٠/ ٩٧.

(٢) مقاييس اللغة – مادة حكم.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٧، روح المعاني ١٠/ ٩٦ (بتصرف).

وآثر التعبير بـ "أَلْحِقْنِي" دون "اجعلني" الذي درج على الدعاء به، لأن الثاني- بدلالته على التصيير والتحويل[1]- يفيد أنه وقت دعائه ليس من الصالحين، وأنه يتوسل إلى ربه أن يجعله منهم، وهذا غير مناسب لما يدعو إليه قومه من الصلاح والتقوى، أما "أَلْحِقْنِي" فإنه يدل على أنه من الصالحين، ولكنه يخشى أن يكون دونهم في المراتب والمنازل، بسبب تقصير في عمل، أو تقلبٍ في قلب، وفيه من التواضع والإشفاق ما هو كفيل بإثارة قومه- الذين لم يصلوا إلى درجته في الإيمان والامتثال- إلى اتباعه والسير على منهجه[2].

*****

والمقصود بقوله "وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ" الدعاء بحصول الثناء وتخليد المكانة، بمعنى أن يبقى ذكره حسنا، واسمه متداولا، وسيرته معروفة، وأن يكون نبراسا يهتدي به الناس، ويسيرون على ملته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعبر فيه عن الكلام باللسان، مجازا مرسلا علاقته الآلية، حيث اللسان أداة الكلام ووسيلته، وهو مجاز يجعل ثناء الآخرين على إبراهيم دائما لا ينقطع، وكثيرا غير قليل، وواسعا غير محدود، يقويه تعريف "الآخِرين" بأل التي للجنس، والتعبير بالحرف الدال على الظرفية "في"، والذي يلمح إلى انتشار الثناء عليه بين الآخرين، وليس في عدد محدود منهم.

ولعله يقصد من الدعاء بهذا الأمر أمام قومه- الذين يرفضون اتباعه- أن يُعوضه الله تعالى عنهم خيرا، وأن يبدله بهم ناسا لا حصر لهم، وأن يسير غيرهم

---

(1) الصحاح – مادة جعل.

(2) أخبر القرآن الكريم في أكثر من موضع أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء لنبيه إبراهيم، إذ يقول تعالى "وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ"(البقرة ١٣٠- النحل ١٢٢- العنكبوت ٢٧).

على الملة التي رفضوا اتباعها، وهذا الابتهال بجانب كونه حقيقة يرجو إبراهيم إجابتها، فإن فيه نوعا من حثهم على الفوز بشرف الإيمان به، والانتظام في سلك متبعيه، شأنهم في ذلك شأن الآخرين[١].

وبعد أن طلب السعادة في الدنيا طلبها في الآخرة، فقال عاطفا "وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ"، وفيه آثر التعبير بـ "جَنَّةِ النَّعِيمِ" دون غيره من أسماء الجنة، لأن النعيم هو غاية البشر، ومناط سعيهم، ومنتهى أملهم في الدنيا والآخرة.

والـ "جَعْل" هو: التصيير كما سبق بيانه، وفي التعبير به مسندا إلى ضمير المولى سبحانه وتعالى إلماح إلى أن إدخاله الجنة محض فضل من الله عزوجل، وليس عن استحقاق أو أهلية، يقويه التعبير عن إدخاله فيها بـ"الإرث" "تشبيها له بالإرث الذي يحصل بغير اكتساب من الوارث، وهو أقوى أسباب الملك"[٢]، والمراد: أن يؤهله الله تعالى لاستحقاق نعيم الجنة تفضلا منه وتكرما.

وغرضه من التضرع بهذا الطلب أمام قومه هو بيان رسوخ اعتقاده في قدرة ربه على النفع والضر، وتحقيق السعادة والنعيم في الدنيا والآخرة، ليعلموا ذلك، ويروا إيمانه الشديد به، فيدفعهم إصراره إلى التفكير في اتباعه، ليحظوا بما يدعو به لنفسه من نعيم.

*****

(١) أجاب الله تعالى دعاءه هذا أيضا بأن "جعله شجرة مباركة فرّع منها الأنبياء الذين أحيا بهم ذكره، الذي من أعظمه ما كان على لسان النبي الأمي ﷺ من قوله: "اللهم صل على محمد كما صليت على إبراهيم" إلى آخره. نظم الدرر ٥/ ٣٧٠.

(٢) نظم الدرر ٥/ ٢٧٠.

وبعد أن دعا لنفسه ثنّى بأبيه لأنه أحق الناس ببره، فقال "وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ"، وقد فعل ذلك على الرغم مما لقيه من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد، لأنه كان قد وعده أن يستغفر له، فوفّى بوعده(١).

بجانب أن دعاءه هذا يتسق مع مقاصد ابتهاله في هذا السياق، ذلك أن طلبه المغفرة لأبيه، ثم تعليل ذلك بقوله "إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ" بما فيه من مؤكدات تتمثل في إنّ وحرف الجر والفعل الناقص الدال على أن الضلال قد تمكن منه، حتى أصبح من مكوناته، والتعبيرِ عن الخبر بـ"الضَّالِّينَ" الدال بجرسه الذي يتوسطه حرف المد على أنه قد بلغ في الضلال مبلغا عظيما، ذلك التعليل يفهم منه أن والده الذي اتخذ جانب قومه ليس بمنأى من العقاب، الذي توعد الله تعالى به الضالين، إلا إذا استجاب الله تعالى دعاء ولده له، وهو أمر يرجوه إبراهيم، ولكنه لا يضمنه.

وفيه تعريض بقومه، وإشارة إلى أن ما هم فيه من عناد واستكبار هو في حقيقته الضلالُ الموجب عذاب الله تعالى وعقابه، ولو خلا التعبير من الجملة التعليلية، المؤكِدة ضلال أبيه، واقتصر على طلب المغفرة له لسبق إلى الفهم هوانُ أمر الشرك وجواز التغاضي عنه، وهذا غير متسق مع مقاصد الخليل من ابتهاله.

---

(١) بيّن القرآنُ فيما بعد أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى، وقرر أن إبراهيم استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه "مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ"(التوبة ١١٣- ١١٤) وعرف أن القرابة ليست قرابة النسب، إنما هي قرابة العقيدة. ينظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٠٤.

ولا يخفى ما يحققه فصل الجملتين عن بعضهما بسبب اختلافهما خبرا وإنشاء، من إثارتهم إلى اتباعه والرجوع عما هم فيه؛ كي يدعوَ لهم بمثل ما دعا لنفسه وأبيه.

*****

ثم عاد الخليل إلى تأكيد طلب ما يحقق له السعادة في الآخرة، فقال "وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ".

وفيه تَضَرَّعَ مستعملا أسلوب النهي "وَلَا تُخْزِنِي" لما يفيده النهي هنا من طلب عدم حصول الخزي (الذل والهوان والانكسار)[١] بأية صورة من الصور، ولأي سبب من الأسباب، إذ النهي هو طلب الكف عن الفعل من غير النظرِ إلى الوسع والاستطاعة، لقول الرسول ﷺ "إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه"[٢].

ومن ثم فإن تعبير الخليل بالنهي غرضه الرجاء الشديد والأمل الواسع في أن يمنَّ الله تعالى عليه بعدم الخزي في يوم القيامة على النحو المذكور، وهو من باب ذكر العام بعد الخاص تأكيدا للخاص وطلبا له مرتين، **إحداهما** على وجه الخصوص، **والأخرى** على وجه العموم، وهو في الوقت نفسه يشير إلى أهمية ما يتضمنه العام، وينصُّ على طلبه، ويعد كذلك من باب الإلحاح على الله تعالى في الدعاء، وفيه إلماح إلى أن الدار الآخرة هي الحياة، التي يجب أن تنعقد عليها الآمال، وتتجه إليها القلوب، وتكثر بها الضراعات.

---

(١) يراجع مفردات القرآن – مادة خزى، لسان العرب– مادة خزى.

(٢) البخاري/ كتاب الاعتصام بالسنة/ باب الاقتداء بالنبي ﷺ، مسلم/ كتاب الفضائل/ باب وجوب اتباعه ﷺ.

وفي تعبيره عن يوم القيامة بقوله "يَوْمَ يُبْعَثُونَ" دون غيره من الأسماء، مع إسناد فعل البعث إلى ضمير الغائبين (المقصود به: جميع الناس) على سبيل الالتفات من التكلم إلى الغيبة، تأكيد لأمر البعث، وبيان لشموله جميع الناس بما فيهم من يسمعون دعاءه، ويرفضون الامتثال لدعوته، علهم يرجعون عن كفرهم بالبعث وغيره مما يدعوهم إليه.

واختلف في قوله تعالى "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" فقيل: يظهر أنه من كلام إبراهيم عليه السلام، فيكون "يَوْمَ لا يَنْفَعُ..." بدلا من "يَوْمِ يُبْعَثُونَ" قصد به إظهار أن الالتجاء في ذلك اليوم إلى الله وحده، ولا عون فيه بما اعتاده الناس في الدنيا من أسباب الدفع عن أنفسهم.

واستظهر ابن عطية: أن الآيات التي أولها "يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ" ... منقطعة عن كلام إبراهيم عليه السلام، وهي إخبار من الله تعالى بصفة ذلك اليوم الذي وقف إبراهيم عنده في دعائه أن لا يخزى فيه أبدا، وهو استظهار رشيق فيكون "يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ" خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هو يوم لا ينفع مال ولا بنون ... ويظهر على هذا الوجه أن يكون المراد بـ "إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" الإشارة إلى إبراهيم عليه السلام، لأن الله تعالى وصفه بمثل هذا في آية سورة الصافات في قوله "وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"(الصافات ٨٣-٨٤)"[1].

وأرى أن هذا الكلام لإبراهيم عليه السلام، وأن ذكره في دعائه يتوافق مع الرسائل التي يريد إرسالها إلى قومه، الذين لا يؤمنون برسالته ولا باليوم الآخر ولا بما يخبرهم بأنه يقع فيه، مما يستدعي تأكيد حصوله، ودعوتهم إلى الاستعداد له، ببيان حقيقته وإظهار إشفاقه وخوفه مما يحدث فيه، عل ذلك

(1) التحرير والتنوير ١٩/ ١٥٧ وما بعدها.

يدفعهم إلى التفكير في الإيمان به والاستعداد له، يقول صاحب الظلال "ونستشف من قولة إبراهيم – عليه السّلام "وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ" مدى شعوره بهول اليوم الآخر ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره، وهو النبي الكريم، كما نستشف من قوله: "يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم، وحقيقة ما يظن الناس أن فيه نفعا فيه"[١].

وخص المال والأبناء بالذكر دون غيرهما، لأن الأول تحت يد الإنسان، وهو أول ما يدفع به عن نفسه، والابن هو أخصّ القرابة، وأولاهم بالحماية، والدفع، والنفع، فإذا لم ينفعا في هذا الوقت، فغيرهما في العجز عن النفع حاصل ومؤكد، كما أن "الاقتصار على المال والبنين في نفي النافعين جرى على غالب أحوال القبائل في دفاع أحد عن نفسه بأن يدافع إما بفدية وإما بنجدة "وهي النصر"، فالمال وسيلة الفدية، والبنون أحق من ينصرون أباءهم، ويعتبر ذلك النصر عندهم عهدا يجب الوفاء به"[٢].

وفيه تعريض بقومه وبكل من يهتم بالمال والبنين وغيرهما من أعراض الدنيا، وحث لهم على الاهتمام بما ينفع في يوم القيامة، وهو القلب الخالي من الشك في توحيد الله تعالى، المؤمن بالبعث وما يتبعه من حساب وثواب وعقاب.

وهو ما عبر عنه من خلال الاستثناء بـ"إلا" في قوله "إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"، الذي يمنح الأسلوب أكثر من مزية بلاغية، على النحو التالي:

أولا- الإثارة والتشويق إلى ما يأتي بعد إلا، حتى إذا ما ورد بعد تطلع نفوس المتلقين إليه ثبت عندهم، وتمكن لديهم، "فإن المعنى إذا ألقي على سبيل

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٠٤ وما بعدها (بتصرف).

(٢) التحرير والتنوير ١٩/ ١٥٨.

...الإبهام، تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا ألقي تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم، أو لتكمل اللذة بالعلم به، فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به ألم، وإذا حصل الشعور به من وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة، وبسبب حرمانها من الباقي ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم، أو لتفخيم الأمر وتعظيمه..."[1].

ثانيا- أنه يعد من باب القصر بطريق النفي والاستثناء، الذي يستعمل عندما يواجه المتكلم عقيدة رافضة، ومخاطبا منكرا أشد الإنكار، كما أنه يزيد المعنى قوة من خلال تأكيده بطريقتين، **إحداهما**- نفي النفع في يوم القيامة عن المال والبنين وغيرهما مما يتكئ عليه الناس في الدنيا، **والأخرى**- إثبات النفع في ذلك اليوم العصيب- الذي يخشى فيه الخليل نفسه من الخزي- للقلب السليم دون غيره مما يعتقد الناس بعامة، والمخاطبون بخاصة.

ثالثا- أن هذا الاستثناء يعد مناط القصد من دعاء إبراهيم، لأنه يدعو إلى إدراك حقيقة يوم القيامة، وإدراك حقيقة ما ينفع فيه، ليتوجه المخاطبون إلى القلب بالاهتمام، ويعملوا على سلامته، بتخليصه من التعلق بغير الله، وانقطاع أملهم في كل أحد سواه.

والتعبير بالفعل "أَتَى"، بما فيه من الدلالة على اليسر والسهولة[2] يدل على أن سلامة القلب تعد من الصفات التي تَمَيّز بها الناجون من الخزي- المستغنون

([1]) الإيضاح بشرح الشيخ الصعيدي ١/ ١١٧.

([2]) المفردات – مادة أتى.

عن المال والبنين وغيرهما في ذلك اليوم- وسَهُل عليهم دوامُهم عليها، وأن تخليَهم عنها كان أصعبَ على نفوسهم من تمسكهم بها.

أما تعدية فعل الإتيان إلى اسم الجلالة العلم "الله" ففيه ضرب من التنبيه إلى ضرورة توجيه العمل والنية إلى الله تعالى، لا إلى أحد غيره، وأن ذلك هو التطبيق العملي للإحسان الوارد في حديث عمر رضي الله عنه "...أن تعبد الله كأنك تراه..." (١).

والاقتصار على ذكر القلب دون غيره من أعضاء البدن لما له من سيطرة وسيادة وتحكم كما سبق بيانه، لقول النبي ﷺ "...أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ"(٢)، ووصفه بالـ "سَلِيم" بزنة فعيل يدل على أنه قد بلغ في هذا الوصف- المؤهل للفوز يوم القيامة- مبلغا لا حدود له.

وأخلص مما سبق بيانه إلى:

أن قصد الخليل من الابتهال بهذه المطالب أمام قومه كان دعوتَهم إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه، وتنبيهَهم إلى ضرورة الاستعداد له بسلامةِ القلب، وتخليصِه من التعلق بما لا ينفع، ومن ثم كانت جمله وأساليبه معبرة عن هذا القصد.

-فالنداء بعنوان الربوبية، ومن غير أداة دالٌ على شدة إشفاقه وعظيم خوفه مما يحدث في يوم القيامة.

---

(١) البخاري/ كتاب بدء الوحي- برقم ٥٠، مسلم/ باب معرفة الإيمان والإسلام- برقم ١٠٢.

(٢) رواه البخاري / كتاب بدء الوحي - برقم ٥٢، ومسلم / باب أخذ الحلال وترك الشبهات - برقم ٤١٧٨.

-والأسلوب الإنشائي المتنوع بين الأمر والنهي، والذي تكرر خمس مرات يبرهن على إلحاحه على ربه، وتكرار طلبه بأكثر من أسلوب.

-وذكره العام بعد الخاص لتأكيد ما يطلبه من السعادة في الآخرة، دالٌ على قلقه وعدم اطمئنانه.

-وطلبه المغفرة لأبيه يشير إلى أنه لا يضمن لأحد النجاة في هذا اليوم، مهما كانت درجة قرابته.

-والقصر بطريق النفي والاستثناء يقطع أمل المخاطبين في أن ينفعهم غيرُ الإيمان بلقاء رب العالمين.

*****

وبعد الانتهاء من حكاية دعاء الخليل- الذي يتوسط قصته في سورة الشعراء- انتقل النظم الحكيم إلى تصوير مشهد من مشاهد يوم البعث، الذي يتقيه إبراهيم، ويدعو قومه إلى الإيمان به والاستعداد له "وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ. وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ. فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ. وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ. قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ. فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ. فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" (الشعراء ٩٠ - ١٠٤)، وفي عرضه عقيب هذا الدعاء- الذي يعد أسلوبا من الأساليب الدعوية غير المباشرة كما سبق توضيحه- تأكيد للمعاني التي كان يدعو إليها الخليل، وينصح قومه بها.

وكما كان الاستفهام بسماته البلاغية حاضرا في كلام إبراهيم إلى قومه نراه كذلك حاضرا في كلام الملائكة إلى الغاوين في الجحيم بعد أن يكبكبوا فيها "وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ

يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ " "وذلك تساوق مع قصة إبراهيم وقومه وما كان بينه وبينهم من حوار عما كانوا يعبدون- إنهم ليسألون اليوم "أين ما كنتم تعبدون من دون الله"؟ "هل ينصرونكم أو ينتصرون"؟ ثم لا يُسمع منهم جوابٌ، ولا يُنتظر منهم جواب، إنما هو سؤال غرضه التقريع والتأنيب"[١]، وهو بجانب ذلك يعمل عمله في نفوس المخاطبين من مشركي مكة، المعاندين لرسول الله ﷺ.

*****

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٠٥.

المطلب الرابع

دعاء الخليل في سورة "الصافات"

"وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ"(الصافات ٩٩-١١٣).

وهو دعاء اتجه فيه الخليل إلى ربه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح قائلا "رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ"، وله من الخصائص البلاغية ما يلي:-

أولا- أنه يأتي في سياق حديث السورة عن الابتلاءات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام، والتي يقصد الذكر الحكيم إلى بيانها وتوضيحها، إعلاءً لشأنه، ودعوةً للمؤمنين إلى الاقتداء به في الرضا والتسليم والصبر على ما يلاقونه من إعراض المشركين وأذاهم.

حيث كان الابتلاء الأول الذي حكته السورة بعد حكايتها قصة نوح عليه السلام "وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ. أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ. فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ. قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا

تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ. قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ,. فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ"(الصافات ٨٣-٩٨).

فبعد أن ألقاه قومه في الجحيم، وبعد أن نجاه الله تعالى منها وجعلهم الأسفلين، عزم إبراهيم على أن يهاجر من هذه البلدة، "ويترك وراءه كل شيء فيها، يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس ... ويهاجر إلى ربه متخففا من كل شيء ... مسلما نفسه لله، موقنا أن ربه سيهديه، وسيرعى خطاه، وينقلها في الطريق المستقيم[١]"وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ"، وحذفُ متعلق الفعل "يَهْدِين" يشير إلى اتساع نطاق الهداية، وشموله المكان وغيره من كل ما يحتاج إليه إبراهيم عليه السلام.

ثانيا- أن هذا الدعاء يعد بمثابة التوطئة والتمهيد للابتلاء الأكبر في حياة إبراهيم، والذي لم يتعرّض لمثله أحد، إنه الابتلاء بذبح ولده الصالح الذي دعا الله تعالى- في الدعاء الذي بين أيدينا- أن يرزقه به.

فقد كان إبراهيم حتى اللحظة التي قال فيها لقومه" إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ" وحيدا لا عقب له، ولأنه ذاهب إلى مكان جديد وأرض جديدة، سأل ربه الذرية الصالحة "رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ".

مفتتحا دعاءه بنداء الله تعالى بقوله "رب" المضاف إلى ضميره، لما في النداء مما سبق بيانه من معاني اللجوء والجؤار والاستغاثة، وإظهار الضعف، والإعراب عن عظم حاجته إلى أن يمن الله تعالى عليه بالذرية الصالحة التي تكون له عونا على أداء الأمانة وتبليغ الرسالة، في وقت لم يعد له فيه والد ولا أخ ولا قريب ولا وطن، يقويه حذف أداة النداء المشعر بقرب المدعو واطلاعه على كل ما يمر به الداعي و جميع ما يحتاج إليه.

---

(١) ينظر في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٩٤.

ولما في اسم الرب من معاني الرعاية، والتعهد، وتدبير الأمور اللازمة لصلاح العبد، وصلاح حياته، آثر إبراهيم عليه السلام نداء الله تعالى بعنوان الربوبية، للإلماح إلى أن ما يطلبه من ذرية صالحة أمر فيه كثير من الفوائد لشخصه وللدعوة التي يحملها.

وتعبيره بالفعل "هَبْ" فيه ما سبق بيانه من الطلب المشفوع بالأدب، وهو أسلوب أدعى إلى إجابة دعائه، وتحقيق مطلبه، لأن الهبة هي: العَطِيَّة الخاليةُ عن الأَعْواضِ والأَغْراضِ، يقويه حذف مفعول فعل الهبة، الدال على تفويض أمر الموهوب للرب العالم بما يصلح للداعي وما يصلح لدعوته، والفرق واضح بين ما جاء عليه التعبير وبين أن يقال: هب لي ولدا من الصالحين، أو قريبا منه.

وقوله "لِي" إلماح إلى شدة احتياجه بصفة خاصة إلى الذرية، لكونه أصبح وحيدا فريدا من جهة، ولمساعدته في أداء الأمانة وتبليغ الرسالة من جهة أخرى، يقول ابن عاشور: "فإنه بعد أن أخبر أنه مهاجر استشعر قلة أهله وعقم امرأته، وثار ذلك الخاطر في نفسه عند إزماع الرحيل، إذ الشعور بقلة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى، لأن المرء إذا كان بين قومه كان له بعض السلوّ بوجود قرابته وأصدقائه"[1].

وقيد الموهوب بكونه "مِنَ الصَّالِحِينَ"، معبرا بحرف الجر الدال على التبعيض، لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحا، كما أن صلاح الأبناء أمر محبب عند الآباء، لأن صلاحهم سيترتب عليه برهم بوالديهم، وليقينه أن للذرية الصالحة فوائدَ كثيرة، وفيه دليل على أنه لا يرغب في ذرية غير صالحة، يعزز ذلك ما رآه من أبيه وقومه الذين عايشوه، وكانوا أعرف الناس به، وأكثرهم ثقة في صدقه، ومع ذلك لم يتبعوه، بل ناصبوه العداء، وبلغ بهم الأمر أن رموه في النار ليتخلصوا منه ومما يدعوهم إليه.

---

(1) التحرير والتنوير ٢٣/ ٦١.

*****

هذه بعض أسرار الدعاء الذي طلب فيه الخليل الذرية المؤمنة والخلف الصالح، والذي يأتي تمهيدا وتوطئة للحديث عن الابتلاء العظيم الذي ابتلي به إبراهيم، مما يوجب على الدارس التوقف بالتأمل في تعبير القرآن عن بعض ما ترتب على هذا الابتهال، على النحو التالي:

أولا- فيما يتصل باستجابة الله تعالى دعاء الخليل، أورد النظم الحكيم قوله عزوجل "فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ" والدال على أن الله جل شأنه استجاب دعاء نبيه إبراهيم، وفي نظمه من مظاهر الحفاوة والتكريم، وحصول الشغف والتعلق من الخليل ما يلي:

أ-التعبير بالفاء التي تفيد التسبب والتعقيب "فَبَشَّرْنَاهُ"، فيه إلماح إلى أن البشارة بالغلام الحليم كانت عقيب الدعاء مباشرة، وفيه من تطمين إبراهيم وإدخال السعادة والسرور إلى نفسه ما لا يخفى، والفرق واضح بين تعجيل البشارة وإن تأخر وجود الغلام، وبين تأخير البشارة لحين وجود الغلام.

ب- إسناد فعل التبشير إلى ضمير الحق سبحانه وتعالى بصيغة التعظيم، فيه من الحفاوة والاهتمام ما لا يحتاج إلى بيان.

ت- التعبير عن الموهوب بـ "غُلَامٍ" مع وصفه بـ "حَلِيمٍ" بزنة فعيل، يدل على أن المبشر به سيتحقق فيه جمال الخِلقة وكمال الخُلق، فـ "اغْتَلَمَ الْغُلَامُ: إذا بلغ حدّ الغلومة، ولمّا كان من بلغ هذا الحدّ كثيرا ما يغلب عليه الشّبق قيل للشّبق: غِلْمَةٌ"[1]، وهذا من شأنه أن يزيد من سرور الداعي، ويضاعف من تعلقه بالغلام المبشر به.

---

(1) المفردات – مادة غلم.

ثانيا- فيما يتصل بما كان من الخليل عندما رأى في منامه أنه يذبح ولده، أورد النظم الحكيم قوله تعالى "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ"، وفي نظمه مما ينبغي التوقف عنده ما يلي:

أ-التعبير بالفاء الفصيحة في صدر قوله تعالى "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ" يطوي به النظم الحكيم مدةً زمنيةً رُزِقَ أثناءها الخليلُ بالغلام الذي بُشِّرَ به، وقام مع أمه على أمره، متحملا آثار الحمل والولادة والرضاع والتربية، والسعي على حوائجهما، ليصل إلى المرحلة التي صار فيها الغلام محل نظر أبيه، ومحط إعجابه، وشاغل جزء من فكره، كما صار أمله فيه كبيرا لا حدود له، لا سيما إذا كان الوالد قد بلغ به الكبر مثل ما بلغ بإبراهيم، و إذا كان الغلام على الشاكلة التي بُشِّر بها من جمال الخِلقة وكمال الخُلق.

وكأني بهذا التعبير الكنائي يصور لنا الخليل إبراهيم وهو يسعى في الطرقات يروح ويجيء وابنُه إلى جواره يدا بيد، وكتفا بكتف، يكلفه ببعض الأمور، ويعتمد عليه في بعض المهام، ويقومان معا بالشيء الكثير، مما تتطلبه حياتهما، ومما تحتاج إليه الرسالة التي يسعيان إلى إبلاغها، وهذا من شأنه أن يجعل طلب ذبحه بيد الأب في هذه المرحلة أمرا لا يتحمله عقل بشر، ولا تطيقه عاطفة إنسان.

يقول ابن القيم "لما اتخذ الله تعالى إبراهيم خليلا، والخلة تتضمن أن يكون قلبه كله متعلقا بربه، ليس فيه شعبة لغيره، فلما سأله الولد وهبه اسماعيل فتعلق به شعبة من قلبه، فأراد خليله سبحانه أن تكون تلك الشعبة له لا لغيره من الخلق، فامتحنه بذبح ولده، فلما أقدم على الامتثال خلصت له تلك الخلة وتمحضت لله وحده، فنسخ الأمر بالذبح لحصول المقصود، وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال"[١]، وهو كلام رائق، إلا أنني لا أرى في النظم الحكيم ما يومئ إليه.

ب- رَبَطَ النظم الحكيم بين قوله تعالى "قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى" وبين ما قبله برباط الشرط المثير إلى ما يترتب على الفعل، ليرسخ في عقل المتلقي الحكمةُ من فعل إبراهيم، ويستوطن في فؤاده الإيمانُ القويُّ الذي سهّل على الخليل الاستجابة لأمر ربه ومولاه، الذي أنعم عليه بنعمة الغلام، والذي أمره بعد بلوغه السعي أن يذبحه بيده.

وفيه عبر إبراهيم بالنداء الموحي بالتحبب والتعطف، والدال على قرب المنادَى من المنادي "يَا بُنَيَّ"، كما عبر عن الرؤيا بالمضارع "أَرَى" مع تأكيده بـ "إنّ" للدلالة على تحقق حصولها وتجدده، ويقينه في أنها أمرٌ من الله تعالى، ووصفها بقوله "فِي الْمَنَامِ" للتمييز بينها وبين الرؤية البصرية، وحتى لا يقال: إنها شطحة من شطحات الخيال، كما أكد فعل الذبح "أَنِّي أَذْبَحُكَ" لكونه محل استغراب ومثار تعجب، وعبر به مضارعا حكاية للحال التي رآها في منامه، ولو عبر به ماضيا لكان معناه أن أمر الذبح قد مضى وتم، ومن ثم فلا مناص من حصوله، ثم ختم تعبيره بالاستفهام الموقظ واللافت للانتباه "فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى"؟ وغرضه منه أن يعيش ولده هذا الأمر، وأن يخالجه ما فيه، وأن "يتذوق حلاوة التسليم! لأنه

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم الجوزية- تحقيق/ محمد حامد الفقي ٢/ ٢٥٥.

يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها، وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأقنى"[١]، ويقول البقاعي "ولما كان الأنبياء عليهم السلام أشفق الناس وأنصحهم، أحبّ إبراهيم أن يرى ما عند ولده، فإن كان على ما يحب سُرّ وثبّته، وإلا سعى في جعله على ما يحب، فيلقى البلاء وهو أهون عليه، ويكون ذلك أعظم لأجره لتمام انقياده، ولتكون المشاورة سنة"[٢].

ت-فصل بين قوله تعالى "قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ" وبين ما قبله لشبه كمال الاتصال، الذي يستعمل عندما يراد تفاعل المتلقي مع الأحداث، لجدارتها بالمتابعة والاهتمام، لعظم ما فيها من دروس ومعان، يقصد النظم الحكيم إلى ترسيخها في قلوب المتلقين بعامة والمخاطبين بخاصة.

فقول الغلام "يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ" بما في نظمه من النداء الناطق بإشفاق الغلام على أبيه وتوقيره له "يَا أَبَتِ"، والأمر الحازم الناصح للأب بفعل ما يؤمر به من غير تردد أو شفقة "افْعَلْ"، والتعبير عن المفعول باسم الموصول الدال على العموم "مَا"، والمشير إلى استعداد الغلام لامتثال جميع الأوامر بصفة عامة وأمر الذبح بصفة خاصة، مع إسناد فعل الصلة "تُؤْمَرُ" لما لم يسم فاعله لعلم الغلام بالآمر الحقيقي وهو الله جل في علاه، "وعدل عن أن يقول: اذبحني إلى "افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ" للجمع بين الإذن وتعليله، أي: أذنت لك أن تذبحني؛ لأن الله أمرك بذلك، ففيه تصديق أبيه وامتثال أمر الله فيه"[٣].

وقوله "سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" فصل عما قبله لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء، فيما يعرف بكمال الانقطاع، وهو مع ذلك يتصل به من حيث كونه معينا للوالد على امتثال أمر الله عز وجل بالذبح.

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٩٥.

(٢) نظم الدرر ٦/ ٣٢٧.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣/ ٦٥.

وفيه فصل بين المضارع "سَتَجِدُنِي" ومعموله "مِنَ الصَّابِرِينَ" بقوله "إِنْ شَاءَ اللَّهُ"، "تأدبا مع الله، واعترافا بحدود قدرته وطاقته في الاحتمال، واستعانةً بربه على ضعفه، مع نسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية، ومساعدته على الطاعة"(١)، وعبر بقوله "مِنَ الصَّابِرِينَ" مستعملا حرف الجر "مِن" للمبالغة في اتصافه بالصبر، لأنه يفيد أنه سيجده في عداد الذين اشتهروا بالصبر وعرفوا به، يقويه تعبيره بالفعل "سَتَجِدُنِي" الدال على أنه سيرى ذلك منه حقيقة وواقعا.

كل ذلك يدل على عظم ما يتمتع به الغلام من فهم صحيح، وإيمان راسخ، وحلمٍ مَاثَلَ فيه أباه، وهي صفات كان إبراهيم- بعد الله تعالى- سببا في تحليه بها، كما أنها تعد من الدروس التربوية التي تفيد الآباء والدعاة على السواء.

ث- عبر في قوله تعالى "فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ" بالفعل الماضي المسند إلى الألف العائد إلى إبراهيم والغلام، والذي هو أحد حروف الإطلاق "أَسْلَمَا"، للإلماح إلى وصول التسليم من الوالد والغلام أعلى الدرجات وأقصاها، بما ينفي حصول أي تردد من أحدهما، ثم عطف عليه الفعل "تَلَّهُ لِلْجَبِينِ" ليكون برهانا على حصول الاستسلام، ودليلا على تمام الانقياد، والشروع في تنفيذ الذبح بطريقة تجعل الوالد يمضي فيه من غير تلجلج ولا تردد، ذلك أن النظر في عيني الغلام أو إلى وجهة حال الذبح من شأنه أن يثير شفقة أبيه، مما قد يحول بينه وبين التنفيذ.

ولما كان إظهارُ استسلام إبراهيم، وإبرازُ طواعيته وانقيادِه لتنفيذ أمر ربه بذبح ولده، والدعوةُ إلى التأسي به في ذلك هو المقصود من وراء هذا الاختبار الذي لم يتعرض له بشر غيره، جاء التعبير القرآني بعد ذلك مباشرة ليعلن نجاح إبراهيم فيما ابتلاه الله تعالى به، وليبرز تفضل الله تعالى على الوالد والولد بالفداء،

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٩٥.

وليوضح تكريم الله تعالى وتشريفه للخليل، لصدقه مع ربه، وحرصه على تنفيذ ما أمره به "وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ".

وكل ذلك مما يغري باتباعه، والسير على ملته، والاقتداء به في التضرع إلى ربه، والرضا بما قسمه له، والصبرعلى ما ابتلاه به، مع مواصلة الدعوة إلى الله تعالى، مهما وضع في طريقها من عقبات وعراقيل، ومهما أوذي المرء في سبيل القيام لها وبها.

*****

المطلب الخامس

دعاء الخليل في سورة "الممتحنة"

"قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"(الممتحنة ٤-٥).

وهو دعاء يأتي في ثنايا سورة الممتحنة، المعقودة لتأصيل قضية الولاء والبراء عند بعض المؤمنين المهاجرين، الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم في سبيل عقيدتهم، وما تزال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلّفوا هنالك من ذرية وأزواج وذوي قربى.

وسبب نزولها ما حدث من الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة، من إرساله كتابا مع امرأة كافرة إلى مشركي مكة، يخبرهم فيه بعزم الرسول ﷺ السير إلى أم القرى من أجل فتحها[١].

ولأن السورة تهدف إلى تربية المؤمنين على أن يكون ولاؤهم لله لا لغيره، وانتماؤهم للدين لا إلى الأهل والعشيرة، وتقصد إلى تأهيلهم للقيام بهذا الأمر بيسر واستساغة، جاء نظمها على النحو التالي:

أولا- بدأت بنداء المؤمنين متبوعا بنهيهم عن مولاة الأعداء، مع إيراد الأسباب المقنعة بالاستجابة لهذا النهي- كما هي عادة القرآن في الجمل الواقعة بعد

---

(١) يراجع صحيح البخاري- كتاب بدء الوحي- حديث رقم ٣٠٠٧، وأسباب النزول للواحدي ٢٦٨.

النهي والأمر في الذكر الحكيم- [1]"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ. إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ"(الممتحنة ١-٢).

ثانيا- إتْباع ذلك بقوله "لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"(الممتحنة ٣)، ليضيف سببا جديدا يُقَوّي به ضرورة التبرؤ منهم وعدم مولاتهم بأية صورة من الصور، وهذا السبب هو: حصول الضرر منهم في الآخرة، كما حصل منهم في الدنيا، ومن ثم ينقطع أمل الطائفة المؤمنة في حصول أي نفع منهم في أي وقت من الأوقات، وتستريح نفوسهم وتطمئن قلوبهم إلى مقاطعة هؤلاء الأعداء، مهما كانت درجة قرابتهم.

يُقوّي ذلك اصطفاء التعبير القرآني الأرحام والأولاد، مع التعبير بالفعل المنفي بحرف النفي المفيد للتأبيد "لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" والأرحام هم: الآباء والأمهات والإخوة الأشقاء، والأولاد: هم فلذات الأكباد الذين يبذل المرءُ لهم من نفسه وصحته وماله وجميع ما أوتي، فإذا انتفى النفع من هؤلاء، فلن يحصل نفع من غيرهم من ذوي القرابة والأهل والعشيرة، مما يشير إلى ضرورة أن تكون البراءة عامة، والعداوة شاملة.

([1]) نحتاج إلى دراسة بلاغية تقف مع بناء الجملة الواقعة بعد الأمر والنهي في الذكر الحكيم، لإبراز خصائصها البلاغية، وسماتها الأسلوبية، ليتضح للناس بجميع شرائحهم سياسةُ النظم القرآني في قيادة البشر وتطويعهم لما يريده الشارع الحكيم.

ثالثا- تعزيز تلك المعاني بإيراد قصة الخليل والذين آمنوا معه، وذكر موقفهم الفاصل مع قومهم، وختمها بآخر أدعيته الواردة في الذكر الحكيم، لما في ذلك من الدروس التربوية، والفوائد الإيمانية التي تنفع المخاطبين، من خلال تذكيرهم بأبيهم إبراهيم، وحثهم على التأسي به وبمن معه في قضية الولاء والبراء.

*****

وقد مهّد التعبير القرآني لدعائهم في هذا الموقف بقوله "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ"، ويلفت النظر في نظمه ما يلي:

أ- أن قوله تعالى "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ" فيه من الإثارة والتهييج ما يدفع المخاطبين بخاصة والمسلمين بعامة إلى مقاطعة الكافرين، وعدم التردد فيها أو استصعابها، لما فيه من دلالة على أن مثل ذلك الموقف قد اتخذه قبل ذلك جدهم إبراهيم والمؤمنون معه، مما يعني أن الأمر ليس جديدا ولا مبتدعا ولا تكليفا يشق على المؤمنين القيام به.

ودعا النظم الحكيم إلى التأسي بإبراهيم عليه السلام؛ لأن المؤمنين بخاصة والعرب بعامة يرتبطون به ارتباطا وثيقا، برجوع نسبهم إليه، وأمرهم في القرآن باتباع ملته، ولأنه أيضا كان "مثلا في اليقين بالله والغضب له، عرف ذلك العربُ واليهودُ والنصارى من الأمم، وشاع بين الأمم المجاورة من الكنعانيين والأراميين، ولعله بلغ إلى الهند ... وعطف عليه "الَّذِينَ مَعَهُ" ليتم التمثيل لحال المسلمين مع رسولهم ﷺ بحال إبراهيم عليه السلام والذين معه، أي أن يكون المسلمون

تابعين لرضى رسولهم ﷺ كما كان الذين مع إبراهيم عليه السلام"[1]، لا سيما إذا عرف المخاطبون أن الضمير في "الَّذِينَ مَعَهُ" عائد إلى زوجه سارة وابن أخيه لوط، حيث كانوا جميعا- بما فيهم إبراهيم- ثلاثة فقط.

وفي التعبير استعارة تبعية في الحرف "فِي"، شُبه فيها تلبس إبراهيم والذين معه بكونهم أسوة وقدوة بتلبس الظرف بالمظروف، بجامع التمكن، ثم سرى التشبيه من الجزئيات إلى الكليات، فاستعير"في" للتلبس والجدارة بالمتابعة والتأسي، يقويه تنكير المبتدأ "أُسْوَة" مع وصفة بـ "حَسَنَة" زيادة في المدح والترغيب.

ب- البدء في قوله تعالى "إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ" بـ"إذ" الظرفية التي تعود بالمخاطبين إلى زمن القول ليتصوروا تلك الحالة ويعايشوها، لا سيما وأوجه الشبه بينهم وبين إبراهيم وأتباعه قائمة حاصلة، وجاء التعبير بالفعل "قَالُوا" للإشارة إلى وضوحهم في الإبانة عن حقيقة علاقتهم بقومهم، وعُدي فعل القول إلى المعمول "قَوْمِهِمْ" دون كلمة أخرى، للإلماح إلى أنهم قالوا ذلك الكلام الواضح في البراءة والخصومة لقومهم، بما تحمله الكلمة من شمول وعموم الآباء والأمهات والأبناء والإخوة والأعمام والأهل والعشيرة، وكل من يُستنجد به، وجميع من يُعتمد عليه.

ث- المجيء بجملة "إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ" لحكاية الطريقة التعبيرية التي اصطفوها لإعلان براءتهم من قومهم ومما يعبدون من دون الله، وبيان مدى وضوحها، ودلالتها على ما تكنّه صدورهم من إيمان بالله تعالى، وانحياز لمنهجه، وتقديمهم البرهان على ذلك بقطع صلتهم بكل من يكفر به، أيا كان ومهما كان.

([1]) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٢٧ وما بعدها.

حيث جاء إعلانهم هذا مؤكدا بإن والجملة الاسمية، مُعبَّرا فيه عن المسند إليه بضمير المتكلم المعظم نفسه "إِنَّا"، لكون الضمير أعرف المعارف، ولما يتطلبه المقام من عزة أهل الحق- حتى ولو كانوا قلة- وتعاليهم عن الحاجة إلى أهل الباطل، كما جاء المسند جمعا مختوما بألف المد قبل آخره "بُرَآءُ"، مع تعليقه بضمير الخطاب العائد إلى قومهم "مِنْكُمْ" وعطف ما يعبدون من دون الله عليه بالواو التي تفيد المصاحبة "وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" ليكون إعلان البراءة والمقاطعة شاملا الجميع، مع إبداء الأسباب التي تحث المخاطبين على التخلي عنها، وإلا كانت مقاطعة وبراءة لا سبيل معها إلى العودة، كما توحي به ألف المد.

وجاءوا بجملة "كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ" لتكون بيانا لمعنى جملة "إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ"، ومن ثم فصلت عنها لكمال الاتصال، الذي تقوى فيه صِلاتُ الجمل ببعضها لدرجة لا تحتاج معها إلى واصل لفظي[١].

كما أنها تعد من باب التفصيل بعد الإجمال، الذي يفيد هنا تأكيد معنى البراءة والمقاطعة بذكره مرتين، **إحداهما** على سبيل الإجمال، **والأخرى** على سبيل

---

(١) ومن أوجه حسن هذا الضرب ما أشار إليه الدكتور محمد أبو موسى بقوله (هو في التوكيد تقوية المعاني وتقريرها، وفي البيان تنشيط النفس وإيقاظها، لأنها حين تتلقى كلاما ملفوفا بشيء من الغموض تشتاق إلى بيانه، وتستشرف في التعرف على وجهه، فإذا جاء البيان صادف نفسا يقظة، متطلعة، فيتمكن الكلام منها، وفي المنزل منزلة بدل البعض تفصيل وتنصيص، ... ولا يخلو الوجهان البدل والبيان من التوكيد، لأن في كل تكريرا للمعنى وتحقيقا، كما أن التوكيد لا يخلو من كشف الفكرة وبيانها، وإنما الذي نبهنا إليه هو أوضح ما في كل) دلالات التراكيب/ ٣٠٠.

التفصيل، مما يدل على أنهم سلكوا أكثر من طريقة تعبيرية لإيصال هذا الخبر إلى قومهم.

ومما يلفت النظر تعبيرُهم بكلمات "كَفَرْنَا- بَدَا- الْعَدَاوَة- الْبَغْضَاء- أَبَدًا" والأولى تعني: إنكار قومهم وإنكار ما هم عليه من شرك بالله، والثانية تعني: بدأ ونشأ، مما يفيد أن العداوة لم تكن موجودة قبل أن يبادروا بإعلانها، وأنها كانت من جانب المؤمنين ولم تكن من جانب قومهم، ولا يخفى ما فيه من استغناء بالله تعالى عن غيره من مخلوقاته، مهما كانوا حريصين على إدامة الود.

والعداوة: المعاملة بالسوء، والبغضاء: كراهية النفس لهم، وذكر الثانية معطوفة على الأولى إلماح إلى حصولهما معا، وعدم الاكتفاء بالأولى، وذلك دال على حصول البراءة الظاهرية والبراءة الباطنية، وأن ذلك أكملُ أنواعها، وهو المطلوب من المؤمنين أن يمتثلوه.

ومما يسترعي الانتباه اشتمالُ هذه الكلمات كلها على ألف المد التي تسمى أيضا ألف الإطلاق، و لها أثر واضح في الدلالة على المعاني التي يقصد النظم الحكيم إلى إيصالها في هذا السياق، فالألف في "كَفَرْنَا بِكُمْ" تدل على وصول الإنكار منتهاه، وهي في "بَدَا" تدل على وضوح العداوة وإظهارها والمجاهرة بها من غير خوف أو إنكار، وهي في "الْعَدَاوَةُ" تدل على المبالغة، وفي "الْبَغْضَاء" تدل على تغلغل الكراهية لهم في أعماق نفوس المؤمنين، وفي "أَبَدًا" تقطع أي أمل في أن يكون الزمن كفيلا بتحولهم عن هذه العداوة وتلك الكراهية إلى المحبة والمودة، طالما بقي هؤلاء على كفرهم بالله تعالى.

وتأتي جملة "حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ"، لتكشف للمخاطبين عن سبب حصول هذه العداوة من إبراهيم وأتباعه مع قومهم وأهلهم، وأنه العقيدة التي لا يجب أن يبقى شيء من الوشائج والأواصر بعد انقطاعها، وفيها بجانب بيان السبب

دعوتُهم إلى الإيمان بالله تعالى، واتباع منهجه، إذا كانت لديهم رغبة في عودة المودة والمحبة بطريقة أقوى مما كانت عليه.

ث- الاعتراض بقوله تعالى "إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ"، ليشرح به النظم الحكيم حقيقة موقف الخليل في استغفاره لأبيه، لأن بعض المسلمين كانوا يرون في هذا الموقف بابا تنفذ منه عواطفهم المحبوسة، ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين.

فهو جملة معترضة بين كلام إبراهيم والذين معه إلى قومهم، والاستثناء فيها منقطع، إذ ليس هذا القول من جنس قولهم "إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ"، فإن قول إبراهيم لأبيه "لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ" رفق بأبيه، وهو يغاير التبرؤ منه، فكان الاستثناء في معنى الاستدراك عن قوله "إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ..." الشامل لمقالة إبراهيم معهم، لاختلاف جنسي القولين(١).

وفائدة الاستدراك بها هنا الإشارة إلى خطأ من يظنون أن مودتهم للكافرين قد تكون سببا في هدايتهم، معتقدين أن حالهم في ذلك يماثل حالة وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له.

ويلحظ أن النظم الحكيم هنا أورد بقية قول إبراهيم لأبيه في جملة "وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ"، المبدوءة بواو الحال، يليه الفعل المنفي بالحرف المختوم بألف الإطلاق "وَمَا أَمْلِكُ"، مع تعليقه بضمير الخطاب العائد إلى أبيه مجرورا باللام "لَكَ"، والمجيء بالمفعول الثاني "مِنْ شَيْءٍ" نكرة مجرورا بالحرف المفيد للتأكيد، للإشارة إلى أن استغفاره له قد لا يكون مقبولا عند الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يملك له قبوله ولا قبول أي شيء غيره.

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٣٠.

مما يدل على أن هذا الوعد من إبراهيم كان في سياق خاص، لا اطلاع لأحد من المخاطبين عليه[1]، كما أنه صدر متبوعا بكلام يفهم منه عدم الجزم بقبوله، كما يدل على أن الأولى بالأب أن يكون في عداد المؤمنين الموحدين، لا في نطاق الكافرين المعاندين، ومن ثم فإن التذرع بهذا الوعد في مودة الكافرين أمر غير مستساغ ولا مقبول.

*****

ثم أورد النظم الحكيم بعد هذا الاستدراك دعاءَ إبراهيم الأخيرَ، ليتأسى به المؤمنون في الدعاء كما تأسوا به في إعلان البراءة، فقال تعالى "رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".

وهو دعاء موصول بكلام إبراهيم والذين معه لقومهم[2]، ذلك أنهم لما أعلنوا براءتهم من قومهم، وأخبروهم بأنهم صاروا أعداء لهم مبغوضين إلى قلوبهم،

---

(1) السياق الذي صدر فيه وعد إبراهيم أباه بالاستغفار وضحه النظم الحكيم في سورة التوبة في قوله تعالى "وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ"(التوبة ١١٤).

(2) يقول بعض العلماء: إن هذا الكلام يمكن أن يكون دعاء لإبراهيم والذين معه، ويمكن أن يكون من توجيه الله تعالى للمؤمنين "تعليما منه لهم، وتتميما لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار، والائتساء بإبراهيم وقومه في البراءة منهم، وتنبيها على الإنابة إلى الله و الاستعاذة به من فتنة أهل الكفر، والاستغفار مما فرط منهم. يراجع الكشاف ٥١٤/٤، والتحرير والتنوير ٢٨/ ١٣١.

والذي يبدو لي أنه موصول بكلام إبراهيم والذين معه، لأن من عاداته- عليه السلام- التي وردت في حديث القرآن عنه تفويض الأمر كله لله تعالى، والاستعانة به في كل الأحوال، وكثرة الاستغفار، كما أن قوله تعالى في الآية التالية "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ"(الممتحنة ٦)=

اتجهوا إلى ربهم معلنين توكلهم عليه، والتجاءهم إليه، واحتماءهم به، قائلين "رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ".

وافتتحوا دعاءهم بنداء المولى سبحانه وتعالى بعنوان الربوبية من غير أداة؛ لما سبق ذكره من أن النداء بهذا الاسم الجليل ترجمة عن شعور بالفقر الشديد والحاجة المُلِحّة إلى الرب العالم بما ينفع المنادِي، والقادر على تحقيق ما يصلحه في الدنيا والآخرة، والحامي له من كل من يريد إيذاءه أو الاعتداء عليه.

ثم أتبعوا هذا النداء بجملة من الأخبار التي تحمل في طياتها أدعية بالحماية والرعاية، وهي من باب الطلب المشفوع بالأدب والإثارة إلى تحقيق ما يرغبون فيه، ففي قولهم "عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" تم تقديم الجار والمجرور "عَلَيْكَ- إِلَيْكَ" على الفعلين "تَوَكَّلْنَا- أَنَبْنَا" كما قُدِّم الجار والمجرور على المبتدأ في "وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" وهو تقديم يفيد قصر أفعالهم هذه على الله تعالى، ونفيها عن كل أحد سواه، ولكل قصر منها أثره في تحقيق الغرض المقول من أجله هذا الدعاء، الوارد في سياق حث المؤمنين على التأسي بإبراهيم والذين معه في التبرؤ من الكافرين، ولو كانوا أولي قربى.

فقولهم "رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا" يعني: قصرهم التوكل على ربهم، بمعنى شروعهم في تنفيذ البراءة وإنفاذ العداوة والبغضاء لقومهم، مع رجاء السداد والتوفيق والعون فيه من الله، لا من أحد غيره، وفيه من الثقة والإثارة ما لا يخفى.

وقولهم "وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا" يعني قصرهم الإنابة بمعنى العودة والرجوع على الله تعالى دون غيره، وفيه إلماح إلى خوفهم من النكوص في هذه البراءة، ورجائهم العون على الاستمرار فيها، بالتجائهم إليه سبحانه وركونهم إلى جنابه عز شأنه.

=يدل على تأكيد القرآن ضرورة التأسي بهم فيما صدر عنهم من أفعال وأقوال، مما يقوي القول بأنه من أدعية إبراهيم الخليل والذين معه.

أما قولهم "وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" ففيه إعلان عن توجههم بهذه المقاطعة وتلك البراءة إليه وحده، لما يتضمنه من إقرارهم بأن المصير سيكون إليه، والحساب سيتم بين يديه، ومن ثم فلا خوف لديهم من أحد إلا منه، ولا اعتبار عندهم لأحد سواه.

وفي قولهم "رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" أعادوا نداء المولى سبحانه وتعالى مرتين، مع قرب العهد به لإظهار مزيد من الضراعة والجؤار والافتقار مع كل واحدة من هذه الدعوات، بجانب ما فيه من التشرف والافتخار بنداء المولى عزوجل.

وقولهم "لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا" نهي قصدوا به التوسل إلى الله عزوجل ألا يحصل ذلك لهم بأية صورة من الصور، لأن النهي كما سبق بيانه: طلب الكف عن حصول الفعل من غير النظر إلى الوسع والاستطاعة، مما يشي بأن حصول المنهي عنه فيه أضرار كثيرة تعود عليهم وعلى الكافرين أنفسهم، إذ يمكن أن يزداد الكافرون كفرا وغرورا بسبب انتصارهم على المؤمنين، أو يمكن أن يختل إيمان المؤمنين بسبب تسلط الكافرين عليهم، "قال الزجاج: لا تظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حقّ، فيفتنوا بذلك. وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حقّ ما أصابهم هذا"[1]، ومن ثم كان طلبهم ذلك بأسلوب النهي، الذي يقويه تنكير"فِتْنَةً" المفيد للعموم والشمول.

والتعبير بفعل الجعل المنهي عنه "لَا تَجْعَلْنَا"، والذي تدل مادته على التحول والتصيير، كما سبق ذكره، يشير إلى أنهم لم يكونوا كذلك عند الدعاء، مما يدل على أن طلبهم يقصد به أن يديم الله تعالى عليهم نعمة الاعتزاز بالدين والثبات عليه، بصوة تغيظ الكافرين، وتزيد من كمدهم.

([1]) فتح القدير ٧/ ٢٠٤.

وفي التعبير طباق بين ضمير المؤمنين المُعَبَّر عنه بـ "نَا" وبين "الَّذِينَ كَفَرُوا"، وهو طباق يرسم لنا صورة المؤمنين المتضرعين إلى الله تعالى وقد صاروا ضعفاء أذلاء، استقوى عليهم الكافرون المغرورون، وصاروا يسخرون مما هم عليه، ويشككونهم فيه، حتى أصبحوا في حالة يرثى لها، وهي صورة تثير إلى مساعدتهم، وتدفع إلى تحقيق ما يقصدونه من دعائهم.

و قولهم "وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا" أمر يراد به التضرع بطلب ما يصلح أمورهم في الآخرة وما يوجب رضى الله عنهم في الدنيا، وهو اعتراف بالتقصير درج عليه إبراهيم عليه السلام في أدعيته، "إدراكا منه لمستوى العبادة التي يستحقها منه ربه، وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوي الذي يكافئ به نعم الله وآلاءه، ويمجد جلاله وكبرياءه، فيطلب المغفرة من ربه، ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده"[١].

وفي عطفه على ما قبله بالواو التي تفيد المصاحبة إلماح إلى أن الشعور بالتقصير وعدم الوفاء بعهد الله تعالى على الوجه الأكمل كان ملازما لإبراهيم والذين معه، ومن ثم فإن على المؤمنين المخاطبين بهذا الكلام أن يتحلوا بالشعور ذاته، وأن يعودوا عما أقدموا عليه من مودة الكافرين، وأن يتوبوا إلى الله تعالى ويستغفروه مما قاموا به في هذا الأمر، يقويه إعادة نداء الرب سبحانه وتعالى بعده بعنوان الربوبية المفيد اطلاعه على خَلْقِه وعلمه بما يعتريهم من ضعف ناتج عن تركيبتهم البشرية.

وجملة "إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" تذييل جاءوا به لتأكيد ثقتهم في قدرة الله تعالى على تحقيق ما طلبوا، وتلبية ما ابتهلوا به، ومن ثم عمدوا إلى أن يكون نظمها على النحو التالي:

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٣٤.

أولا- تأكيدها بأكثر من مؤكد (إنّ- القصر بطريقي تعريف الطرفين، وتوسيط ضمير الفصل) للإشارة إلي عمق إيمانهم باتصاف ربهم سبحانه وتعالي بهاتين الصفتين.

ثانيا- مجيء صفتي "الْعَزِيز الْحَكِيم" بزنة فعيل، للإبلاغ في كمال الوصفين وتأكيد ثبوتهما لله عزوجل.

ثالثا- ايثار هاتين الصفتين دون غيرهما، له أثره في إجابة الدعاء، لأن معنى "الْعَزِيز" الغالب الذي لا يعجزه شيء، و"الْحَكِيمُ" من أحكم، إذا أتقن الصنع بأن حاطه من الخلل، ومن كانت العزة من صفاته فهو كفيل بإعزاز من لجأ إليه، وإيواء من احتمى به، ومن كانت الحكمة صفة له فهو عالم بأن صلاحهم دنيا وآخرة في عدم جعلهم فتنة للكافرين، وفي جبر تقصيرهم في الوفاء بما كلفهم به.

وبعد هذا البيان:

يتضح أن قصد إبراهيم والذين آمنوا معه إلى استجلاب عون الله تعالى ومساندته، لا سيما بعد إعلانهم البراءة ممن يُتوقع منهم المساندةُ والعونُ، كان وراء إيثارهم التعبير بما يلي:

-النداء المُظهر الاستعطاف وشدة الحاجة إلى عون الله تعالى ومساندته، والذي تكرر هنا ثلاث مرات.

-القصر الدال على أنهم متوجهون بإعلانهم البراءة من قومهم إلى الله تعالى لا إلى أحد غيره.

-النهي المفيد تضرعهم بألا يكونوا فتنة للكافرين.

-الأمر المشير إلى التوسل بطلب المغفرة، لكون ذلك من مؤهلات إجابة دعائهم ومساندتهم.

-التذييل بأسلوب القصر المُقرر ثقتهم في قدرة الله تعالى على إجابة دعائهم.

*****

وبعد حكاية النظم القرآني موقف الخليل والذين آمنوا به في المفاصلة مع قومهم، وختمها بتلك الضراعة الخاشعة عاد النظم القرآني ليقرر ضرورة التأسي بإبراهيم والذين معه في كل المواقف بصفة عامة، وفي موقف البراءة بصفة خاصة، مع قرن ذلك التأسي بالفلاح في اليوم الآخر "لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ"(الممتحنة ٦) معتمدا على أسلوب المقابلة بين من يتأسى بإبراهيم وأصحابه في معاداة الكافرين وبين من يتولى عن ذلك التأسي، فيتخذ منهم أولياء ويلقي إليهم بالمودة، وهي مقابلة اتسمت بما يلي:

أولا- البدء بالطرف المحمود مقرونا بما يدل على فوزه وفلاحه في اليوم الآخر، والتثنية بالطرف الآخر مقرونا بما يدل على استغناء الله تعالى عنه وعن أمثاله، لما في التقديم من تشريفٍ للأول، وتقبيحٍ للآخر.

ثانيا- أنها لم تذكر ثواب الطرف الأول بصورة صريحة، وفعلت ذلك أيضا مع الطرف الثاني، مكتفية في بيان ذلك بالتلميح لا بالتصريح، ليعمل التلميح عمله في إلهاب النفوس وتهييجها إلى توقُّع الثواب والعقاب، فتذهب نفوس المخاطبين فيهما كل مذهب.

ثالثا- أنها عبرت عن كل واحد من الطرفين بجملة مطابقة لما يقابلها في المعنى دون اللفظ، لما يقوم به هذا الأسلوب التقابلي من الإيضاح والبيان مع الاحتفاظ لكل طرف بما يخصه، من غير تقيد بالألفاظ المتضادة التي قد لا تحقق الغرض المقصود من البيان في هذا المقام.

رابعا- أنها اقترنت- عند ذكرها الطرف الأول- بأسلوب التأكيد بـ "لَقَد" مع التعبير بالفعل الماضي "كَانَ" وتقديم الخبر "لَكُمْ" على المبتدأ "أُسْوَة" مع تنكيره

ووصفه بـ"حَسَنَة" تقوية للرغبة في التأسي بجدهم إبراهيم، حيث إن ذلك هو الأصل، والتصرف الذي لا ينبغي أن يَشُكّ أحد في صوابه، أو يتردد مؤمن في القيام به.

بينما اعتمدت- عند ذكرها الطرف الثاني- على أسلوب الشرط الذي يزيد المعنى بيانا وإيضاحا، ويقوي من تطلع المخاطب وإثارته إلى معرفة ما يترتب على حال التولي عن التأسي بإبراهيم في فعله وفي دعائه، لكونه على خلاف الأصل، ولا يتوقع حصوله من الفئة المؤمنة بعد هذا البيان الهادئ، والتعبير الواضح المقنع.

خامسا- أن عرض هذين الطرفين في قرن واحد من شأنه أن يعمل عمله في نفوس المخاطبين، لكون هذا الفن من الفنون البلاغية التي تزيد النفوس بصرا بحقائق الأمور، وتدفعها إلى فعل الأفضل والأصوب، وهو هنا عدم مولاة الأعداء، والتبرؤ منهم، لما يترتب عليه من مصالح جمة، ولأنه اختيار الخليل والذين آمنوا معه، كما تَصْرِفُها عن مجرد التفكير في الأمر الثاني لكونه على خلاف ما تقتضيه مصلحة الجماعة المؤمنة، ولكون من يقوم به متوليا عن ملة الخليل، رافضا التأسي به وبمن آمن معه.

*****

وهكذا كانت حكاية موقف سيدنا إبراهيم مشفوعا بضراعته الأخيرة في سياق القرآن الترتيلي- مع تأكيد كونه أسوة حسنة في صدر هذه الحكاية وفي ختامها- ملحظا مهما في ختام بيان القرآن الكريم لِضراعات الخليل وابتهالاته، كما أن قرن كونه أسوة حسنة بقوله تعالى "لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ" فيه إلماح إلى أن التأسي به والسير على ملته في الأفعال والأدعية والأقوال من أسباب الفوز والفلاح في يوم القيامة.

وصلِّ اللهم وسلم وباركْ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنكَ حميد مجيد.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير البريات وخاتم النبوات، وبعد،،،

فقد خلصت هذه الدراسة التي تناولت مواضع دعاء الخليل بالدراسة والتحليل إلى عدد من النتائج والتوصيات، على النحو التالي:

١- **النتائج**:

الأولى- أن القصد الأكثر ورودا في أدعية الخليل التي ذكرها النظم الحكيم كان ابتهاله إلى الله تعالى بالثبات على الدين، والمداومة على الإسلام وقبول الطاعة، يليه من المقاصد الدعاء بالتوبة والمغفرة له ولوالديه وعدم الخزي في الآخرة، يليه الدعاء للذرية بصلاح الدنيا والهداية إلى الإسلام، يلي ذلك الدعاء بجعل مكة بلدا آمنا وبعث الرسول ﷺ في ذريته، بينما يتساوى في دعائه الابتهال برؤية كيفية إحياء الموتى، والابتهال بطلب الخلف الصالح، والدعاء ببقاء الذكر في الآخرين.

الثانية- أن ابتهالات الخليل يأتي أغلبها في سياق حديث القرآن عنه وعن مكانته عند الله وعند الناس، بغرض تذكير المخاطبين بانتسابهم إليه، وارتباط جذورهم التاريخية به، مما يوجب عليهم اتباع ملته، والإيمان بالرسول السائر على منهجه، لأن ذلك من الوفاء له، ومن التقدير لأعماله وابتهالاته التي تضرَّعَ بها إلى ربه سبحانه وتعالى من أجلهم.

الثالثة- أن حث النظم الحكيم على التأسي بإبراهيم واتباع ملته- تلميحا أو تصريحا- يسبق بيان القرآن لابتهالاته، كما يُعَقّبُ عليها به في الغالب، فيما يعد ضربا من التوكيد اللفظي الداعي إلى ضرورة الاقتداء به والسير على منهجه، ودليل ذلك التوجيه إلى التأسي به صراحةً قبل الابتهال الأخير وبعده.

الرابعة- برز في تلك الأدعية ما يدل على إخبات إبراهيم وتواضعه وشدة توقيره لربه، حيث كان يطلب كثيرا من حاجاته بالفعل "هَبْ" الدال على العطاء من غير استحقاق، كما كثر طلبه بالفعل "اجْعَل" الدال على التفضل بالتغيير من الحالة التي هو عليها إلى الحالة التي يدعو بها، وقد ورد طلبه بالفعل "هَبْ" (٢) مرتين، بينما ورد الطلب بصيغة "اجْعَل" (٩) تسع مرات.

الخامسة- أما بالنسبة للأساليب البلاغية التي برزت في بيان القرآن لأدعية الخليل فكانت كما يلي:-

١- **نداء الله تعالى بعنوان الربوبية ومن غير أداة**، لما يوحي به من إظهار الضعف، وشدة الحاجة، وغير ذلك مما ورد ذكره، وجدير بالذكر أن نداء الخليل ربه بقوله "رَبَّنَا" تكرر في مواضع الدراسة (١١) إحدى عشرة مرة، بينما جاء نداؤه بقوله "رَبِّ" (٩) تسع مرات، كما ورد ذكر الاسم الجليل من غير نداء، تعبيرا عن الخصال الحميدة والأفعال الكريمة للرب سبحانه وتعالى (٢) مرتين، إحداهما في قوله "إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ"(إبراهيم ٣٩) والأخرى في قوله "وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ"(الصافات ٩٩).

-**أن النداء** كان يأتي دائما في أول الابتهال، كما كان يتكرر مع كل مطلب يراه الخليل أساسا ينبني عليه غيره، أو يتكرر لزيادة الضراعة والالتجاء، مع ما فيه من التلذذ والتبرك.

٢-**الأمر المراد به التوسل والتضرع** بتحقيق ما يبتهل به، حيث بلغ عدد أساليب الأمر الواردة في دعاء الخليل عليه السلام (٢٠) عشرين أسلوبا، متنوعة بين طلب المغفرة والدوام على الإسلام وقبول العمل وغير ذلك من المقاصد التي سبق بيانها.

٣- **النهي المراد به أيضا التضرع والتوسل** بتجنيبه ما ورد بعد حرف النهي، لما له من أضرار كثيرة، حيث ورد استعماله النهي في أدعيته مرتين (٢)، "وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ"(الشعراء ٨٧)،"رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا"(الممتحنة ٥).

٤- **التذييل المؤكد** اتصاف الحق سبحانه وتعالى بالصفات المثيرة إلى إجابة الدعاء، حيث استعمل الخليل جملا تذييلية لأدعيته (٦) ست مرات، مثل "إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" – "إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"– "إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ"، وغيرها.

٥- **تنكير المدعو به**، لما يفيده من تعظيم المطلوب، بما يعني شدة الحاجة إليه، "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا..."– "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا"– " رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا"– "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ".

٦- **القصر** المثير إلى حماية الداعي ورعايته وتحقيق مطلبه، "رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"(الممتحنة ٤).

٧-كما يبرز من أساليب الفصل والوصل بين الجمل **كمال الاتصال**، الدال على تماسك الأسلوب وتناسق عباراته، وكذلك **كمال الانقطاع** لاختلاف الجمل خبرا وإنشاء.

٨-يلفت النظر ندرة أساليب التشبيه والمجاز في ابتهالات الخليل، وكذلك الحال في كل ابتهال، لأن الداعي– في الغالب– يقصد إلى بيان حاجته بصورة مباشرة، بعيدة عن التصوير والخيال.

٩-ورد من ألوان البديع الطباقُ الدال على إحاطة علم الله تعالى بكل ما يعلنه العبد في دعائه وما يخفيه منه، "رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ" (إبراهيم ٣٨).

السادسة- أما في تمهيد القرآن أو تعقيبه على دعاء الخليل فقد برز من الأساليب البلاغية ما يلي:

١-**التعبير بـ "إذ" الظرفية**، التي تدفع المخاطبين إلى استحضار مشهد الدعاء ومعايشته، حيث ورد التعبير به في صدر خمسة (٥) مواضع من مواضع الابتهال الستة.

٢-**التعبير بالفعل الماضي "قال"**، لحكاية تضرع الخليل كما صدر منه، وقد ورد التعبير به أيضا في ستة (٦) مواضع في صدور الابتهالات وثناياها.

٣-**التعبير بالفعل المضارع**، لاستحضار الصورة الماضية كأنها حاضرة مشاهدة، "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ".

٤-يبرز من أساليب الفصل **شبه كمال الاتصال**، لما يمتاز به من إثارة المتلقي إلى متابعة أحداث المواقف التي وردت فيها تلك الأدعية، والمآلات التي انتهت إليها، ومن ثم يُعمل فكره من أجل التقاط العبرة المفيدة، وأخذ الموعظة الناصحة.

٢-**التوصيات**:

توصي الدراسة العاملين في ميدان البحث البلاغي بما يلي:

أولا- إفراد دراسات مستقلة لتناول دعاء كل نبي بالدراسة والتحليل، لما يحققه ذلك من عمق التناول، مع إبراز أثر المقاصد في النظم الذي اصطفوه لدعائهم.

ثانيا- تخصيص دراسة بلاغية في بناء الجملة الواقعة بعد الأمر والنهي في الذكر الحكيم، لإبراز خصائصها البلاغية، وسماتها الأسلوبية، ليتضح للناس بجميع شرائحهم سياسةُ النظم الحكيم في قيادة البشر وتطويعهم لما يريده الشارع الحكيم، وهي دراسة مفيدة للعاملين في مجال صنع القرار واتخاذه، ومفيدة أيضا لغيرهم.

ثالثا- تخصيص دراسة بلاغية تقف مع مواضع تعبير القرآن بـ "النّاس"، ومواضع تعبيره بالمصطلحات ذات الصلة مثل: البشر، والخلق، لتكشف عن الأسرار التي يقصد إليها القرآن عند التعبير بأي منها.

والحمد لله تعالى أولا وآخرا.

ثبت

بالمصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أساليب الإنشاء الطلبي وطرق إفادتها غير معانيها الحقيقية د. محمود موسى حمدان – مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد الثاني عشر.
- الاستفهام القرآني دقائق ورقائق د. محمود توفيق سعد، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد العاشر.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم الجوزية– تحقيق/ محمد حامد الفقي – الطبعة الثانية– دار المعرفة– بيروت.
- الإيضاح لتلخيص المفتاح بشرح الشيخ عبدالمتعال الصعيدي– الطبعة السابعة عشرة– مكتبة الآداب– مصر.
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي– تحقيق/ صدقي محمد جميل – طبعة ١٤٢٠هـ – دار الفكر – بيروت.
- البرهان في علوم القرآن للزركشي– تحقيق/ مصطفي عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح – للشيخ عبدالمتعال الصعيدي– الطبعة السابعة عشرة– مكتبة الآداب– مصر.
- البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف د. محمد أبو موسى– الطبعة الثانية – مكتبة وهبة.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور – الطبعة الأولى – مؤسسة التاريخ العربي – بيروت – لبنان ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- التفسير الكبير للفخر الرازي– الطبعة الثالثة– دار الفكر للطباعة والنشر.

• الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي- تحقيق/ فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل- الطبعة الأولى - ١٤١٣هـ/١٩٩٣م - دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
• خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى- الطبعة السادسة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م – مكتبة وهبة.
• الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي- تحقيق/ مركز هجر للتراث- نشر دار هجر- مصر- ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
• دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى – الطبعة الثانية – مكتبة وهبة.
• دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجاني- تحقيق العلامة/ محمود شاكر – مطبعة المدني ونشر الخانجي – القاهرة.
• روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
• صحيح البخاري- ط دار الشعب – القاهرة- ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
• عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح – بهاء الدين السبكي- دار الكتب العلمية- بيروت.
• غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري – تحقيق/ زكريا عمران- مطبعة دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
• الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين سليمان بن عمر الجمل- دار إحياء الكتب العربية.
• في ظلال القرآن لسيد قطب – الطبعة العشرون – دار الشروق – القاهرة.
• الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- للزمخشري- تحقيق/ عبدالرازق غالب المهدي – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
• لسان العرب لابن منظور – الطبعة الأولى – دار صادر – بيروت.

• المطول على التلخيص- سعدالدين التفتازاني- المكتبة الأزهرية للتراث.
• المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني- تحقيق/ د. محمد أحمد خلف – مكتبة الأنجلو.
• مقاييس اللغة لأحمد بن فارس- تحقيق/ عبدالسلام هارون – طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م – نشر اتحاد الكتاب العرب.
• من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره – رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية بالمنوفية – للباحث/ صبحي إبراهيم عفيفي المليجي- ٢٠٠٤م.
• النبأ العظيم – محمد عبدالله دراز- الطبعة الثانية- مركز إبصار للنشر والتوزيع – القاهرة-١٤٢٧هـ/٢٠١٦م.
• نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي – تحقيق/ عبدالرازق غالب المهدي – دار الكتب العلمية – بيروت.

محتويات البحث

م	الموضوع
١	**المقدمة**
٢	**المطلب الأول: دعاء الخليل في سورة البقرة.**
٣	**الموضع الأول.**
-	المشهد الأول- مناسبة آياته للسياق.
-	بلاغة النداء باسم "رب"- وغرض أسلوب الأمر- وسر استعمال اسم الإشارة "هذا"
-	السر في تنكير "بلدا" مع وصفه بـ"آمنا"، وسر الدعاء برزقهم من الثمرات.
-	المشهد الثاني- مناسبة آياته للسياق.
-	بلاغة الكلام وتلاحم جمله وعباراته- سر افتتاح الدعاء بقولهما "ربنا".
-	الأسرار البلاغية في جملة "إنك أنت السميع العليم"- وسر فصلها عما قبلها.
-	أسرار تخصيص الذرية بالدعاء في قولهما "ومن ذريتنا أمة مسلمة لك".
-	أسرار التعبير بالأمر في قولهما "وأرنا مناسكنا وتب علينا".
-	المقصود بالرسول في قولهما "ربنا وابعث فيهم رسولا منهم..." وبلاغة دعائهما به.
-	بلاغة التعقيب القرآني على دعاء إبراهيم.
٤	**الموضع الثاني.**
-	علاقة آياته بالسياق- وبلاغة الاستفهام في قوله تعالى "ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم"؟
-	أسرار النداء في قوله "رب أرني"- والاستفهام في قوله " كيف تحيي الموتى"؟

–	أقوال العلماء في الغرض من الاستفهام في قوله تعالى "أولم تؤمن"؟
–	بلاغة جواب إبراهيم "بلى ولكن ليطمئن قلبي" وأسراره.
٥	**المطلب الثاني: دعاء الخليل في سورة إبراهيم.**
–	سياق الدعاء ومطالبه– وأسرار النداء – والتعبير عن مكة باسم "البلد".
–	بلاغة الأمر وأسرار تعليله في قوله "واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن..".
–	أسرار الأمر في قوله "فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم" وبلاغته التعبيرية.
–	الخصائص البلاغية لدعاء الخليل "ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن...".
–	ختام دعاء الخليل وأسراره – بيان القصد من إيراد دعاء الخليل وإجمال أساليبه.
٦	**المطلب الثالث: دعاء الخليل في سورة الشعراء.**
–	سياق الدعاء ومناسبته– والسر في قوله تعالى "واتل عليهم نبأ إبراهيم".
–	الخصائص البلاغية لدعاء الخليل في سورة الشعراء.
–	المراد بالحكم في قوله "هب لي حكما"– وسر التعبير بـ"ألحقني" دون اجعلني.
–	سر التثنية بأبيه في قوله "واغفر لأبي".
–	المزايا البلاغية للاستثناء في قوله "إلا من أتى الله بقلب سليم".
–	بيان قصد الدعاء وإجمال أساليبه – تعقيب النظم القرآني على دعاء الخليل.
٧	**المطلب الرابع: دعاء الخليل في سورة الصافات.**
–	سياق الدعاء وقصده– علاقته بالابتلاء الأكبر في حياة الخليل– أسرار الطلب بـ"هب".

-	ما ترتب على الدعاء وأسرار تعبير القرآن عنه.
٨	**المطلب الخامس: دعاء الخليل في سورة الممتحنة.**
-	مقصود السورة - وسياق الدعاء فيها.
-	التمهيد القرآني لدعاء الخليل وأسراره.
-	أسرار المد بألف الإطلاق في "كفرنا- بدا- العداوة- البغضاء- أبدا".
-	القول في الدعاء: هل هو لإبراهيم أم توجيه للمؤمنين؟
-	بلاغة النداء في قولهم "ربنا"- وأسرار القصر في الجمل التي تليه.
-	بلاغة النهي في قولهم "لا تجعلنا فتنة للذين كفروا"- وأسرار الطباق فيه.
-	بلاغة التذييل في قولهم "إنك أنت العزيز الحكيم"
-	إجمال قصد الدعاء وأساليبه- أسرار المقابلة في تعقيب القرآن عليه.
٩	**الخاتمة.**
١٠	**ثبت بالمصادر والمراجع.**
١١	**فهرس الموضوعات.**

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه.